الفصل الخامس

أثر الحياة الاجتماعية فى الشعر

١ – مشكلات الحياة الاجتماعية :

التعليم ، الطب ، بوادر الإصلاح فى العهد العثمانى

سبب التأخر الاجتماعى فى رأى الشعراء

٢ – مشكلة المرأة :

السفور ، الحجاب ، التعليم ، حقوق المرأة

٣ – الفلاح والإقطاع :

الفقر ، والمرض ، والجهل ، الدخل ، السكن ، الإقطاع التعليم معالجة مشكلاته

٤ – مشكلة الفقر :

آثرها فى المدن ، أثر الدين الإسلامى فى معالجتها

١

مشكلات الحياة الاجتماعية

لاحظنا من الفصول المتقدمة أثر الحياة السياسية فى الشعر ، وكيف استحوذت مشكلاتها على جزء كبير من تفكير الناس ، وشغلتهم عن معالجة المشكلات الاجتماعية . ومع هذا فقد كان هناك من يحس بضرورة إصلاح الحياة الاجتماعية وينعى على الناس هذا الاستغراق فى السياسة والانصراف عن المجتمع ، فقد كتب الشيخ على الشرقى ، يصف هذه الحالة بمقال منه (. . فلا نرى فى الأمة إلا سياسيًّا وسياسة ، حتى كأن الجمهور العراق كله طائفة سياسية ، فالسياسة فى الجوامع والمخادع والمقاهى والأسواق والطرقات والمدارس وغرف المحاماة والثكنات العسكرية . فالبقال والفلاح ورجال العلم ورجال الدين والمحامون والضباط ورجال المال والحوذية وسائقو السيارات كلهم ، سياسيون ، وكل العراق موجات سياسية ، وقد عمّ الطوفان السياسى حتى حانوت الخباز . .[1]) لأن مشكلات الحياة السياسية كانت أشد بروزاً للعيان ، وأكثر تماساً بحياة الشعب بعد الاحتلال الإنكليزى ، فقد أثر تأثيراً كبيراً فى حياته اليومية فى رزقه وعواطفه ومشاعره . وهدد الطمأنينة فى نفسه . فقد شعر أن كرامته قد هدرت ، وأمانيه العزيزة قد جرحت ، فهو عرضة للسجن والنفى والتشريد ، والتعذيب ، دون أن يعرف سبباً لما ينزل به . فالمحتل بعيد عنه فى الدين واللغة والتاريخ والتقاليد ، وكان هذا المحتل قويًّا ضارياً تؤثر قواه المادية والمعنوية فى حياته ، وتسيطر عليها ، فيجب أن يكرس جزءاً كبيراً من نضاله ليعيد الهدوء إلى قلبه ، والأمان والحرية والدعة لوطنه ، ويتخلص من الجنود الذين يسرحون على أرضه ، والطيارات التى تثر فى سمائه ، ومن موظفيه الذين يتحكمون فى مصيره وحياته ، فاتجاه الشعب نحو السياسة كان ضرورة حتمية للتخلص من المستعمر ، الذى يقف حائلا دون أى إصلاح جذرى . . فلا غرو أن عزى كل تأخر للمستعمر . . ومشكلات العراق الاجتماعية لا تختلف عن مشكلات البلدان المتأخرة الأخرى ، فهى الفقر ، والمرض ، والجهل ، ومشكلة الإقطاع والفلاح ، والمرأة ، ولا تزال هذه المشكلات قائمة حتى الآن ، برغم ما بذل فى إصلاح

---

(١) جريدة النهضة العراقية العدد ٣٠ السنة الأولى ١٩٢٧ .

بعضها ، ولكنها لم تصل إلى ما يهدف إليه العالم الاجتماعى بعد ، فقد كان لتوالى الغزوات على العراق أثر كبير عميق الأثر فى تأخر العراق الاجتماعى . فالمستعمر تركيًّا كان أو فارسيًّا أو إنكليزيًّا لم يكن يهمه غير استمرار حكمه ، فلم يعن بمشكلات البلد الداخلية ، ففى القرن التاسع عشر لم يكن فى العراق غير مستشفى واحد ، ومن الطريف أن تكون مؤهلات مدير المستشفى البراعة فى لعب الشطرنج ، فهو لاعب شطرنج ماهر لم يكن الوالى بقادر على الاستغناء عنه فأعطاه هذا العمل ليكون إلى جانبه . وقد بقيت حالة العراق متأخرة حتى بعد الحرب العظمى الأولى ، فقد بدئ بإنشاء أول مستشفى عام ١٩٢٨[٢] وبقيت أكثرية الشعب فترة طويلة تحت سيطرة المشعوذين والدجالين من محترفى الطب ، وغالباً ما تؤدى معالجتهم إلى عمى العيون ، وجلد الأبدان وموت المريض ، يضاف إلى ذلك كله ما يصفه بعض الشيوخ من ذوى الطرق الذين يداوون المريض بالأدعية والطلاسم والبصق فى الماء[٣] ولما انتشر الوعى الطبى أخذت المستشفيات تنتشر فى ربوع العراق حتى بلغت ٨٩ مستشفى[٤] . وقد بقيت حالة التعليم متأخرة فى العهد التركى ولم تؤثر دعوات الإصلاح لأنها كانت محدودة الأثر ، ويساير إصلاح الفساد الإدارى والخلقى ، وتحت ستار الدين الإسلامى خوفاً من أذى الوالى الذى يعد النصيحة انتقاصاً لكرامته حتى جاء دستور ١٩٠٨ فارتفعت أصوات الناس عالية تطالب بالإصلاح ، وتجرأت بعض الجرائد على السخرية من المرتشين والمستغلين[٥] . وأخذت بعض الجرائد تنشر بعض الرسائل المفتوحة تشكو ما حل بالبلاد من تأخر شمل جميع نواحيها[٦] وقد كان لتدفق جرائد سوريا ومصر وتركيا ، وما تحمل فى طياتها من أنباء التقدم والازدهار أثر فى يقظة الفكر وازدهاره .

وعندما فتح الإنكليز بغداد نشطت سياسة التعليم بتأسيس دائرة المعارف فقد وصل عدد المدارس فى نيسان (أبريل) عام ١٩٢٠ إلى تسعين مدرسة[٧] . وازداد نشاط فتح المدارس عندما تولى

---

(٢) مجلة عالم الغد العدد ٧ السنة الأولى مقال للدكتور معمر خالد الشابندر .

(٣) لا تزال هذه المداواة لدى كثير من أبناء الشعب فى القرى والأرياف وهناك من يثق بالطب القديم حتى فى المدن وبين المثقفين . وقد قتل أحد الشيوخ فى لواء ديالى قبل سنوات أحد المرضى بالأعصاب لاستخراج الروح الشريرة من بدنه فأدى ذلك إلى سجنه .

(٤) نشرة الإحصاء الصحى والحياتى سنة ١٩٥٢ بغداد ١٩٥٥ ص ٣٦ .

(٥) يلاحظ الفصل الأول .

(٦) جريدة الرقيب العدد ١١٤ السنة الأولى .

(٧) Henry A. Foster, The Making of Modern Iraq (London 1936) PP. 15,20.
ولكن تقرير وزارة المعارف ينص على وجود ٨٨ مدرسة .

العراقيون الإشراف على سياسة المعارف حتى بلغ عدد المدارس التابعة لوزارة المعارف عام (١٩٥٣ / ١٩٥٤) ما يلى :

نوع الدراسة	العدد
المدارس الابتدائية على اختلاف أنواعها	١٤٥١
المدارس الثانوية والمهنية	١٤٣[٨]

وإذا قورن هذا العدد بمساحة العراق ، وبعدد نفوسه ، فهو عدد ضئيل . ثم إن أكثرية هذه المدارس مركزة فى المدن ، أما القرى والأرياف فهى محرومة من التعليم ، ففى العراق ١٦٠٨ مدرسة تابعة لوزارة المعارف من مختلف درجاتها ، ولا يوجد فى القرى التى تحوى أكثرية السكان غير ٥٧٤ مدرسة[٩] ولم ترتفع نسبة التعليم فى العراق عن ٨ ٪ (سنة ١٩٤٩) وكانت أعلى نسبة للتعليم فى لواء بغداد قد وصلت إلى ١٨ ٪ وهو اللواء الوحيد الذى حصل على هذه النسبة المئوية . وقد تدنت فى بعض الألوية إلى ٣ ٪ والإحصاء التالى يعطينا فكرة عامة عن التعليم فى العراق عام ١٩٥٣ — ١٩٥٤ :

نوع الدراسة	عدد المدارس				عدد الطلاب
	الذكور	الإناث	المختلط	المجموع	
الدراسة الابتدائية الرسمية	١٠٩٤	٢٥٦	١٠١	١٤٥١	٢٥٨٣٣٣
الدراسة الابتدائية الأهلية	٠٠٣٥	٠٠٣	٠٩٣		٠٢٠٢٦١
الدراسة الابتدائية الأجنبية	٠٠٠٥	٠٠٠	٠٠٥		٠٠١٧٨٤
المجموع	١١٣٤	٦٢٩	١٤٦	١٥٤٩	٢٨٠٣٧٨
الثانوية على اختلاف أنواعها	٠١٤٧	٥٠	—	١٩٧	٠٤٦٤٦٣
المدارس المهنية على اختلاف أنواعها	٠٠٠٨	٠٢	١	٠١١	١٨٧٤
دور المعلمين	٢	١	—	٣	٨٦٣
المعاهد العالية	٣	١	٨	١٢	٥٢٥٥
المجموع العام لجميع المدارس والدورات	١٢٩٧	٣٢٥	١٥٨	١٧٨٠	٣٣٥٧١٤[١٠]

(٨) التقرير السنوى ص ٧ .

(٩) المصدر السابق .

(١٠) التقرير السنوى عن سير المعارف ١٩٥٣ — ١٩٥٤ بغداد ١٩٥٥ ص ٦ .

وقد أيقظ فتح الإنكليز بمظاهره المادية الفكر العراقى برؤيته مستوى عالياً من الحياة لم يره عند جنود الدولة العثمانية كالنظافة والأناقة وكفاية فى المال . وكانت مجالا واسعاً للمقارنة بين الجيشين وتمنى المثقفون أن ترتفع حالة الشعب المادية وأن ينتبه على صوت سنابك خيل المحتل ووطء أحذيته على أرض الوطن . .

أما الأدب فقد تغير مجراه العام ورافده الذى كان يتسرب فيه ، فابتعد عن خدمة السلطان والوالى والحكومة واتجه للشعب وخدمته ، وأصبحت للشعب منزلة محترمة وبدأ الشعراء وقادة الرأى فى معالجة مشكلاته الاجتماعية والسياسية لرفع شأنه وخلق شعب قوى صحيح غنى مثقف . وقد كانت هذه المشكلات الاجتماعية متشابكة مع المشكلات السياسية . وكان الشعب جاهلا مريضاً فقيراً . والشعب الضعيف المتأخر ، المتخاذل لا يقدر على إصلاح نفسه لأن قوة الشعب تأتى من قوة أفراده ومتى قدر الضعيف الواهن على المقاومة والنضال لاستخلاص حقه ؟. . والمؤلم أن هذا الشعب يملك أرضاً تفيض بالخيرات خصبة تتدفق فيها الأنهار وتضيع خيراته ويذهب ماؤه عبثاً . . لأن المستعمر الدخيل حال دون استغلال هذه الثروات . قال الصافى النجفى مستنكراً ذلك بقوله :

ما للفرات يسيل عذباً سائغاً ... عجباً ، وورد بنى الفرات أجاج
الفقر أحدق فى بنيه وإنما ... ماء الفرات العسجد الوهاج
جاءته (حوت البحر) ظامئة له ... أو ما كفاها بحرها العجاج
قد شب فيها نفطنا ناراً فهل ... يطفى لظاها ماؤها الثجاج
والنفط يجرى فى العراق ومالنا ... ليلا سوى ضوء النجوم سراج

ويتهكم على الاستعمار الذى كبل الشعب ويقول إنه مطلق السراح يفعل ما يشاء بحرية تامة بينما هيمنت رقابته على كل صغيرة وكبيرة ليسيره حسب ما يريد ويهوى :

قد أثقلوه من القيود بمرهق ... وأحاط فيه من العداة سياج
زعموه مختاراً وقد وضعت له ... تحت الصوارم والمدى أوداج
أيكون ذا رشد بعقد عقودهم ... وبغير ذاك لقيمّ يحتاج ؟
نمّ الخداع بما تكن صدورهم ... إن الخداع لدى اللبيب زجاج
أسروا العراق وكم فدينا أنفساً ... عنه ، فهل لأسيرنا إفراج ؟

(١١) جريدة النهضة العراقية العدد ٢٥٦ السنة الثانية ١٩٢٨ والأمواج ص ٥٠ .

ويبعث الأمل فى نفس الشعب ، ويدله على الطريق السوى فى سبيل حقه بالمطالبة الملحفة وبالشجاعة والإقدام ويضرب له الأمثلة من عبر الأيام التى حطمت العروش وسحقت التيجان لأن الشعب لم يكن ركيزتها فقال :

لا تيأسن من اللجـــاج فإنمـــا سبل الحيـــاة شجاعـــة ولجـــاج
لا تيأسوا فالحادثـــات بمرصـــد ولكم هـــوى عرش ، وحُطّم تاج

وكان التأخر والانحطاط مهيمنين على ربوع العراق ، وليس هناك من يصلحه لأن المتحكمين فى مصير الشعب هم الدخلاء والانتهازيون ، وخشى الشعراء أن يصرحوا بذلك خوف أذى السلطان ومكره ، وبطش القوة وقساوتها فانصرفوا إلى تقريع الشعب الذى تحمل الذل صابراً ، وما ثار ، واسترد حقه ، وأصلح أمره بقوته . فعندما جاء أمين الريحانى إلى بغداد عام ١٩٢٢ ، كان الأمل يملأ قلبه من ذكريات بغداد فى عهدها الذهبى الزاهر أيام كانت مشرق الأمل للعالم فى الحضارة والرقى والتقدم ، وقد صدمه واقعها المرير الحاضر فنظم الرصافى قصيدة يرحب به ويعتذر إليه عما حاق بوطنه فقال :

أأمين جئت إلى العـــراق لكى ترى ما فيـــه من غـــرر العلى وحجـــوله
عفواً . . فذاك النجم أصبـــح آفلا والقـــوم محتربون بعـــد أفـــوله
أما الحيـــا فـــذياك الحيـــا لكل مسيل المـــاء غير مسيلـــه
وربيعـــه ذاك الربيع وإن شكا من جهل ساكنـــه اشتداد محـــوله

وكانت نفس الرصافى تفيض حسرة وهو يعدد مصائب العراق التى تدمى القلوب أسى وتملأ القلوب لوعة ، فقد أصبح القطر الذى كان يدوى صيته ويزهو برقيه وحضارته وعمارته فى مباءة للاختلاف والتنازع ووكراً للتنابذ والتناحر والبغضاء والشقاق . فالجار يخشى من جاره ، والصديق يشك فى أعز أصدقائه وأهليه ، فقد اختلف أبناء الوطن الواحد وأصبحوا كتلا وجماعات ، فالنصرانى يشك فى سلامة نية المسلم ، والمسلم لا يطمئن للنصرانى ، وقد بلغت الفوضى حداً لم يبلغه قطر من أقطار المعمورة ، فقد انتهكت حرمة العلماء والأساتذة ولم تبق لهم كرامة أو قيمة ، وخشى العلماء الأفذاذ وأصحاب الرأى فيه إبداء آرائهم لفساد الأحوال وتدنيها كيلا يتهموهم بالمروق والكفر وبالخروج عن تعاليم الدين . . إنه لوضع مؤلم وآلم منه الاعتراف به . . لكن مما يخفف عن النفس أحزانها وعن النفس شجونها وشجوها ومن القلب لوعته وأساه أن يسجل الشاعر ما يحتبس فى صدره ويجد تعليلا

لهذا الأمر كله يقدمه للريحانى ، هو أن العراق لا يتصرف حسب أهواء أبنائه ورغباتهم ، إنما هى توصيات العميل المستوردة ، وشعب هيمن عليه المستعمر لن ينال الخير والرفاهية فقال :

من أين يرجى للعـــراق تقـــدم ... وسبيل ممتلكيـــه غـــير ســـبيله
لا خـــير فى وطن يكون السيف عنـ ... ـد جبانه ، والمـــال عند بخيله
والرأى عند طريده ، والعلم عنـ ... ـد غريبه ، والحكم عنـــد دخيلـه
وقد استبد قليلـــه بكثـــيره ... ظلماً ، وذل كثيره لقليلـــه [١٢]

وقد كانت آراء الرصافى سائدة بين شعراء هذه الفترة مثل عبد الحسين الملا[١٣] وعلى الشرقى[١٤] وصالح الجعفرى[١٥] وعبد الحسين الازرى[١٦] ومهدى الجواهرى[١٧] فكلهم يرجع سبب تأخر العراق إلى المستعمر الذى رتع بخيرات الوطن ، وتصرف بجميع مقدراته دون أن يحس بما يعانيه من الشقاء ، فقال كمال نصرة بصراحة تامة يصف فوز الأجنبى وتنعمه بالعراق :

بلادى بهـــا فاز الغريب بقصـــده ... فما خانه جـــد ولا عـــز مطلب
له راتب ضخم وعيش مرفـــه ... وأمـــر مطـــاع واحتكام ومنصب
وإن له عنـــد الحكومة حرمـــة ... وقدراً تسامى وهو منهـا مقرب
أفى الحق أن نشقى ويسعد غيرنـا ... ويغصب منها الحـــق والرزق يسلب [١٨]

وصور على الخطيب آلام الشعب العميقة تحت وطأة الدخلاء والمستعمرين الذين اكتسحوا أرضه ونعموا بخيراته دون أن يصلحوا من أمره ويرفعوا من مستواه عندما اختلطوا به ، وهز قلبه أنينه وبلواه فقال :

---

(١٢) ديوان الرصافى ص ٤١٥ – ٤١٧ . سمعت أن الملك فيصل لما سمع (والحكم عند دخيله) ترك محل الاحتفال احتجاجاً .

(١٣) جريدة النهضة العراقية العدد ١١٦و١٢٦ السنة الأولى والعدد ٢٨٢ السنة الثانية من سنة ١٩٢٨ .

(١٤) المصدر السابق العدد ١٤ السنة الأولى ١٩٢٧ .

(١٥) النجف العدد ٤ و٧٥ السنة الثانية سنة ١٩٢٧ .

(١٦) جريدة النهضة العراقية ٩٧ / ١ / ١٩٢٨ والزمان ٣٩ / ١ / ١٩٢٨ .

(١٧) المصدر السابق العدد ٢٦٠ / ١ ١٩٢٨ وجريدة المفيد العدد ٢٥٧ / ٢ / ١٩٢٤ .

(١٨) جريدة النهضة العراقية العدد ٢٨٢ السنة الثانية ١٩٢٨ .

فخالط الشعب واسمع ما يئن به وافسح مجالك للمظلوم بالكلم[١٩]

وألقى بعض الشعراء تبعة تأخر العراق على أبناء الشعب ، الذين شاركوا المستعمر فى حكمه فقال (ميمون بن قيس) – ولعله خيرى الهنداوى – يخاطب الوطن :

حتى بنوك مع الدخيل عليك متحدى الأيادى

ويصم أبناء الوطن بالخور والضعف ، لأنهم لم يقاوموا المستعمر وأذناب المستعمر الذين عميت قلوبهم عن مصالح وطنهم ، ونفذوا رغبات الدخيل دون تفكير ، فهم المسئولون عن كل ما حل بالبلاد من فساد وفوضى ، فقال :

هم علة الوطن العزيز وهم جراثيم الفساد[٢٠]

وقد أكد هذا المعنى محمود الملاح فى شعره ، ومن طريف شعره بيت قال فيه :

الخير فى هـذى البـلاد مقسم بين المسائر من (سمث) و(كوك)

ويرجوك الشاعر أن تتلمس الواقع بنفسك فى الأسواق بالاحتكاك بأبناء الشعب وتسقط حالته الاقتصادية والعلمية . . وما وصلت إليه من التدنى والتأخر فيقول :

انزل إلى الأسواق تلـق متاجـراً أربابهـا فى رثـة الصعلـوك
العامل المسكين يبـذل جهـده ويعيش عيش البائس المنهـوك
والعلم فى أوطـاننا متقهقـر مغمـورة أرجـاؤه بالنـوك[٢١]

أما مصطفى جواد فقد حار فى أمره واندهش من تصرفات الدخيل الذى ظن نفسه صاحب الدار ولم يرع لرب البيت حرمة . فقد تنعم بالخيرات وترك الفضلات لأصحاب النعم الذين هم أحق بها منه ولم ير سبيلا إلى التخلص منه بغير الطرد والضرب والصفق فقال :

فاعجب بضيف صـار للـدار صاحباً وتعساً له قد باء بالطرد والصفق[٢٢]

---

(١٩) جريدة الزمان العدد ٤٤ السنة الثانية ١٩٢٨ .

(٢٠) مجلة المعرض العدد المزدوج ٩ و١٠ السنة الثانية ١٩٢٧ .

(٢١) جريدة البلاد العدد ١١٠ / السنة الأولى / ١٩٣٠ وجريدة النهضة العراقية العدد ٢٩٧ السنة الثانية ١٩٢٩ له قصيدة أخرى .

(٢٢) جريدة النهضة العراقية العدد ١٣١ السنة الأولى ١٩٢٨ وله قصيدة فى العدد ٦٨ من السنة نفسها .

وقد وجه الصافى النجفى لومه للشعب لأنه هو الذى خلق الحكومات ولو كان الشعب عادلا لما جاءت إلا حكومة عادلة ترحمه وترأف به . ولكن متى كان الشعب ظالماً كانت الحكومات التى تحكمه ظالمة مثله فقال :

دافـع الشعب بالحكومة إن يظ لمك وادفع بالشعب ظلم الحكومه
واحذر الكل فالحكومة بنت الش عب خلقاً والشعب أم ظلومـه

ثم يعزو تكوين الحكومات الظالمة إلى ظلم الشعب وعدم نضجه فيقول :

إن ظلم الشعوب سوى الحكومات وانشأ لنـا الطقوس القديمـه
فترى الشعب للحكومـة لا يحـ ـتاج لو كان ذا قلـوب رحيمـه
فالحكومات مثـل أشواك سم أنبتتها أرض الشعوب الوخيمـه

ونصح الشعب بإصلاح خلقه حتى يمكن أن تلغى الحكومات فقال :

أصلحوا خلقكم لتلغى الحـكوما ت وعيشوا ذوى قلوب سليمه(٢٣)

وهذه القاعدة صحيحة متى كان الشعب قادراً على أن ينتخب حكومته من صميم أبنائه ، أما الحكومات العراقية فلم تكن تختار إلا بإرشاد من حكومة بريطانيا وليس للشعب أى رأى فى اختيارها . . ولكن يأسه من إصلاح الحالة العامة دفعه لإلقاء اللوم على الشعب . . بعد أن رأى عدم عناية الحكومة الحاكمة بأموره وعدم ثورة الشعب على الحكومة الظالمة الأجنبية .

---

(٢٣) الأمواج ص ٦٤ .

٢

مشكلة المرأة

من الفترات الحالكة التى مرت بها المرأة فى العراق هى فترة القرن التاسع عشر[١] وأوائل القرن العشرين فقد كانت محجبة لا يسمح لها بالخروج من الدار إلا فى النهار وتحت مراقبة شديدة ، وقلما كنا نرى امرأة مسلمة تمر فى السوق ، بل إن مجرد سماع العراقيين ذلك يهز أعصابهم ويخيفهم[٢] وإذا أرادت الخروج كانت تسدل عليها العباءة السوداء أو العباءتين وتتبرقع ببرقع أسود لا يرى منه شيء ، وعليها أن تمر فى الدروب الضيقة والأزقة المتعرجة وتتجنب المحلات العامة والمقاهى ، وإذا لم يكن غير طريق واحد كانت أمهاتنا يطلبن إلينا أن نسبقهن إلى المحل الذى ستزوره كيلا يعرف الرجال من مصاحبتنا لهن هويتهن . وقد يبلغ التعصب بالرجل أن يمنع زوجه الخروج من البيت لأى سبب ، وقد سمعت أحد الشيوخ قبل سنوات يتحدث مفاخراً بأن زوجته لم تر عتبة الباب ، وخير وصف لحالتهن قول محمد بسيم الذويب :

ظلمك ، سجنوك زوجوك شر زوج فى الوجود
قائلا زوجى لا تخرج إلا يوم تدعوها اللحود[٣]

ولا يزال بعض الرجال يخجل من ذكر اسم الأم أو الزوجة أو الأخت أمام الغرباء ، ولما انبثق القرن العشرون ودوى صوت قاسم أمين فى مصر تردد صدى صوته فى العراق ، فقد طالب بوجوب تعليم الفتاة وتخفيف الحجاب أو رفعه عنها وإعطائها حقوقها الاجتماعية ، وحريتها الطبيعية مستنداً إلى تعاليم الدين الإسلامى التى تمنح المرأة مثل هذه الحقوق[٤]

---

(١) الشعر العراق فى القرن التاسع ص ٢٤ .

(٢) Foster, H., The Making of Modern Iraq (London 1938) P. 217.

(٣) مجموعة خطية بقلم الشاعر فى مكتبتى الخاصة ويلاحظ ديوان الزهاوى ص ٢١٦ .

(٤) الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر للدكتور محمد حسين (القاهرة ١٩٥٤) جـ١ ص ٢٧٧ خير من كتب فى هذا الموضوع ولاحظ الاتجاهات الأدبية تأليف أنيس المقدسى جـ٢ ص ٤٨ .

وقد ساعد على نشر هذه الآراء عناية الجرائد المصرية بها والرد عليها ونشر أخبار المؤيدين لها . وكانت هذه الجرائد تصل العراق[٥] وتؤثر فى القراء فكان منهم المستحسن والمهاجم ، وقد انقسم الرأى كانقسامه فى مصر ، فنـادى بعض القوم بوجوب تعليم المرأة وإعطائها حريتها ، واعتبارها إنسانا لها ما للرجل من حقوق وواجبات ، وإفساح المجال لها لتكون عضواً عاملا لبناء المجتمع فى العراق ، واتخذ الدين الإسلامى وتعاليمه سنداً لهذه الآراء وضرب الأمثلة الحية من تاريخ العرب . فقد حاربت النساء مع الرسول وظهرن سافرات معه وذقن آلام الأسر والتعذيب كالرجال .

أما الذين كانوا يقفون أمام التيار فأكثرهم من رجال الدين الذين يرون فى سفور المرأة واختلاطها بالرجال خطراً سيكلف المجتمع مشكلات خطيرة وعدّوا السفور مخالفاً لتعاليم الدين الإسلامى ، وقالوا بأن السفور يقود الناس إلى المجون و إن إباحة النظر للمرأة سيهدم القيم الاجتماعية ، وقد اتهم دعاة السفور بأنهم دعاة فساد يريدون التمتع بالمرأة دون قيد أو شرط وهذه أمور لا تقرها التقاليد العربية ، ودعاة السفور كفار ، وذكروا فى دفاعهم فوائد الحجاب فهو يصون المرأة من الفجور ويكسر حدة الشهوة الجنسية[٦] وغير ذلك من الحجج .

كانت دعوة السفور دعوة جديدة هاجمت معايير المجتمع العراقى التى اصطلح عليها وارتضاها، لذلك كان من الصعب عليه أن يتخلى عنها بسرعة لأنها دعوة لم يألفها من قبل ، واهتز لها واضطرب وعاش فى دوامة من الحيرة والقلق لأنه كان بين نارين : العقل ومتطلبات الواقع من تحرير المرأة ومساواتها بالرجل ، والتقاليد والتربية الاجتماعية التى ألفها الفرد . ومشكلة المرأة مشكلة حساسة فى المجتمع العراقى الذى يرى أى خدش فى كرامتها خدشا لكرامته ولكرامة الأسرة كلها . والأسرة العراقية متماسكة كل التماسك ، فأى عار يصيب امرأة من الأسرة فهو يصيب الأسرة كلها ، ويمنع المجتمع العراقى المرأة التحدث مع الرجل الغريب فكيف بالخروج معه ومخالطته والعمل معه . لذلك فقد وجدنا حتى الداعين إلى السفور أرادوه بشروط كيلا يؤذوا مشاعرهم الاجتماعية التى نشأوا عليها ،

---

(٥) كان عدد ما يرد إلى العراق أسبوعياً نحو خمسة آلاف نسخة بضمنها الجرائد غير العربية يلاحظ مقال عن الصحافة فى جريدة البلاد الصادرة فى ٧ شباط (فبراير) ١٩٣٥ ومقال عن (أثر الصحافة المصرية) فى (دار السلام) العدد ٨ / ١ / ١٩١٨ .

(٦) تنوير الأفكار العدد ٣ السنة الأولى ١٣٢٨ هـ

فقد طالبوا بتعليم المرأة ومراقبتها وأن يكون سفورها محدداً بالوجه متعللين بالخوف من نكسة تصيب المرأة ، وطالب قسم بتعليم المرأة أولا ثم سفورها حتى تتمكن من المحافظة على نفسها من الرجال .

وقد كان على رأس المناصرين لحركة تحرير المرأة الرصافى والزهاوى ، فقد نظم الرصافى قصيدته التائية عام ١٩٠٩ وقد آزرته جريدة الرقيب ومما قالته (إن حالة المرأة فى مدينة بغداد حالة يستحى القلم من تحريرها لأنه لا يوجد بينهن واحدة من عشرة آلاف من تحسن القراءة ، والسبب الأعظم هو تعصب سادتنا علماء الدين ضد تعليمهن . .)[٧] وقد كان لهذه القصيدة أثر كبير فى الحياة الاجتماعية العربية ، فقد تناقلتها الجرائد السورية وبادر بعض الشعراء يرد عليها مفنداً آراءها محرماً تعليم المرأة لعدم قدرتها على التعلم ، ولانها من سقط المتاع ، وقد استمرت هذه الدعوة طويلا ولم تنته . مع أن المرأة قد حصلت على كثير من حقوقها ، وقد جرت بعض المتاعب على الرصافى ، وديوان الرصافى يطفح بمؤازرة المرأة حتى إنه أفرد لها باباً أسماه (النسائيات) إضافة إلى وجود بعض قصائد فيه[٨] ، وقد بحث الرصافى جميع مشكلات المرأة الاجتماعية فكان اجتماعيًّا وخبيراً بهذه المشكلات ، ولم يكتف بمشكلة المرأة فى العراق ، إنما ساهم فى البحث عن مشكلتها فى الشرق ، فذكر غمط الرجل لحقوقها واحتقاره لها وجهلها الذى جر إلى ذل الشرقيين وشقائهم[٩] ، ولما أرسل قصيدته إلى صاحبة مجلة (الخدور) شكا لها سوء حالة المرأة فى العراق كثيراً وشبه المرأة كالنخلة إذا لم تكن قوية فلن يكون ثمرها يانعاً طيباً[١٠] وبحث فى مشكلة حرية الزواج التى اشترطها الدين الإسلامى والتقاليد العربية الأصيلة ولم يمنحها المجتمع لها منذ حجبها عن الرجل ، فمنعها من اختيار شريك حياتها فلا يراها إلا ليلة البناء ، وقد يكون عجوزاً أشيب أغرى أسرتها بالمال أو بالجاه أو كان للأسرة مصالح فى هذا الزواج فقال :

ظلمـــوك أيتهـــا الفتـــاة بجهلهم إذ أكرهوك على الزواج بأشيبا[١١]

---

(٧) حدثنى المرحوم الأستاذ خيرى الهنداوى أن المرحوم يوسف العطا – من أبرز رجال الدين آنذاك – استغل قصيدة الدفاع عن السفور عندما هجاه الرصافى ، فذهب إلى الملك على وكان يؤثر رجال الدين وأقنعه بكفر الرصافى وطلب إليه معاقبته بقطع راتب قدره ٥٠٠ روبية كان يتقاضاه بتأثير أخيه الملك فيصل بعد أن أقسم عليه بقطعه .

(٨) ديوان الرصافى ص ٣٣٢ – ٣٤٥ .

(٩) ديوان الرصافى ص ٥٤ و١٥٦ .

(١٠) ديوان الرصافى ص ٣٣٢ .

(١١) المصدر نفسه ص ٣٣٦ .

والطامة الكبرى أن تمنع حتى من إبداء رأيها بهذا الزواج ، لأن رفض المرأة يعد عاراً عليها وعلى أسرتها . وقد تحدثت مع أحد أبناء الجيل الذى سبقنى بهذا الأمر ، فقال بصلف وكبرياء ، لم تأتنا البنت التى تجرؤ على رفض رغبة أهلها . لذلك هاجم الرصافى هؤلاء وتساءل كيف تحب الزوجة زوجها إذا زفت إليه غصباً ولن يسود الوئام والسعادة بين الأسر إلا بإفساح المجال أمام تعليمها وسفورها حتى تختار من تريد فتملأ بيت الشرق بالسعادة فقال :

هل يعلم الشرقى أن حيـــاته تعلو إذا رقى البنـــات وهذبـا
وقضى لهـــا بالحق دون تحـكم فيها وعلمهـــا العلـــوم وأدبـــا[١٢]

ويتخذ من ظهور كتاب (السفور والحجاب) للآنسة نظيرة زين الدين سبباً يتحدى به الرجال – الذين يناوئون السفور – إن كان بينهم رجل يحاكى المؤلفة ذكاء وعلماً وأدباً[١٣] وهى نموذج رائع على قدرة المرأة المسلمة على التعلم وعلى الحرية[١٤]وقد أفرد للمرأة المسلمة قصيدة وصف فيها جهلها وبؤسها مع أن الإسلام يفرض تعليمها . ولعل التائية هى الجامعة لكل رأى فى سفور المرأة ، فقد حشد فيها الأدلة والبراهين والشواهد لتأييد رأيه فى سفور المرأة واعتبرها المدرسة الأولى التى يجب أن يعنى بها لينشأ الطفل مهذباً مثقفاً ويحزنه انحطاط المرأة المسلمة فيخاطب أم المؤمنين عائشة زوج النبى ويشكو إليها ما حاق بالمرأة ، ويرد على المدعين بأن الدين الإسلامى منع تعليم المرأة فقال :

وقالـــوا شرعة الإسلام تقضى بتفضيل الـــذين على اللـــواتى
لقـــد كذبـــوا على الإسلام كذباً تزول الشم منـــــه مزلزلات

ويقرع المسلمين الذين لم يلتزموا بتعاليم الدين الإسلامى لانصرافهم عنه ، فظنوا أن منع المرأة من حريتها من صلب الدين ولم يقتدوا برسول الله ولا بنسائه وعناية السيدة عائشة بالعلم فقال :

---

(١٢) القصيدة نفسها .

(١٣) ديوان الرصافى ص ٣٣٤ .

(١٤) السفور والحجاب محاضرات ومناظرات تأليف الآنسة نظيرة زين الدين بيروت ١٩٢٨ لاحظ الصفحات ١٤٨ و ٢٧٥ و ٢٨٠ بشأن شعراء العراق وكتابه . وقد أثنت الكاتبة على الرصافى وعلقت على شعره واستحسنته ص ١٤٨ وقد جاء فى الكتاب على حرية السفور وحرية العمل فى الإسلام وناقشت آراء مستحسنى الحجاب واستندت إلى القرآن والحديث وأخبار العرب وشعر شوقى وإسماعيل صبرى والرصافى والزهاوى وحافظ وأعلام الإصلاح الدينى مثل الأفغانى ومحمد عبده وبرهنت على القابلية الكبيرة فى تعاليم الدين الإسلامى على السفور وحرية المرأة وحقوقها .

أليس العلم فى الإسلام فرضـــاً على أبنـــائه وعلى البنـــات
وكانت أمنـــا فى العلم بحـــراً تحـــل لسائليهـــا المشكلات (١٥)

وقال إن تعاليم الدين قد نصت على تعليم المرأة وإعطائها حقوقها وفى التاريخ العربى خير برهان ، ويشير إلى حياة المرأة البدوية الحاضرة ولا يكتفى بذلك بل يلقى قصيدة يدعو فيها إلى رأيه فى أحد الاحتفالات يندد فيها بجماعة الحجاب ويهاجم المحافظين والمتعصبين فيقول :

إلامـــا لأهل الشرق فى برحـــاء يعيشون فى ذل بـــــه وشقاء
لقد حكموا العادات حتى غدت لهم بمنزلة الأقيـــــاد للأمـــراء

وفى القصيدة يقول :

ألم ترهم أمسوا عبيداً لأنهـــم على الذل شبـــوا فى جحـــور إماء
أقول لأهل الشرق قـــول مؤنب وإن كان قـــولى مسخط السفهاء
ألا إن داء الشرق مـــن كبرائه فبعداً لهم فى الشرق من كبراء (١٦)

ويلاقى الرصافى حملة عنيفة من الحجابيين ويسمونه المارق والتافه الذى خرق العادات وغير ذلك من النعوت مثل قول إبراهيم الرحيمى :

تجاهلت فى كل الأمـــور سفاهة وما أنت إلا تافه الرأى جاهل
خرقت بنظم الشعر عادتنـــا التى بها تحمـــد العقبى وترضى الأوائل (١٧)

ومن الشعراء المشهورين الذين هاجموا الرصافى ، محمد السماوى ولم أطلع على قصيدته ، غير أننى وجدت قصيدة لخيرى الهنداوى يرد بها على السماوى الذى قال بأن المرأة ناقصة عقل ودين ، ولا يجوز أن تمنح الحرية لأنها لا تحسن استعمالها (بنفس البحر والروى) :

تقـــول بنقصهـــن إذاً فلم لا تكمـــل بالعـــلوم الناقصـــات
وهل عدت سكينة حين تبـــــدو وتنتقد الكلام من السراة (١٨)

---

(١٥) ديوان الرصافى ص ٣٣٩ – ٣٤١ وقد ألقى هذه القصيدة عام ١٩٢٢ .
(١٦) ديوان الرصافى ص ٣٤٤ .
(١٧) الناشئة الجديدة العدد ١٧ السنة الأولى ١٩٢٣ .
(١٨) السراة المتبرجة .

وهل عدت صفيـــة يوم قـــامت لقتل العلج كالمتبرجـــات[١٩]

ورد على قصيدته الهمزية عبد الحسين الأزرى فخاطب فيها بنت بغداد (كريمة الزوراء) وحذرها من شاعر خيالى بعيد عن واقع الحياة هو الرصافى ، ووقف موقفاً وسطاً فهو ما أراد أن تسفر الفتاة فقال :

أو لم يروا أن الفتاة بطبعهـــا كالمـاء لم يحفظ بغير إنـــاء
من يكفل الفتيات بعـــد ظهورها مما يجيش بخاطـــر السفهـــاء
ومن الذى ينهى الفتى بشبابـــه عن خدع كل خريـــــدة حسناء

ولكنه أرادها أن تتعلم وتتثقف على شريطة الاحتفاظ بالنقاب حتى لا تختلط بالرجال فقال :

ليس الحجاب بمانـــع تهذيبهـا فالعلم لم يرفع على الأزيـــاء
أو لم يسغ تعليمهن بـــدون أن يملأن بالأعطاف عين الـــرائى

لأن السفور يملأ قلوب الرجال عشقاً وفتنة ، وعلى أبناء الوطن الحذر من دعاة السفور لأنهم كاللصوص يريدون أن يعيثوا بالوطن فساداً فقال متسائلا :

ماذا يريبك من حجـــاب ساتر جيـــد المهـــاة وطلعـــة الذلفـــاء
ماذا يريبـــك من إزار مـــانع وزر الفـــؤاد وضلـــة الأهـــواء

ويقول صراحة إن اجتماع الفتاة بالفتى مجلبة للهوى :

هل فى مجالسة الفتاة سوى الهـــوى لو أصدقتك ضمائر الجلســـاء[٢٠]

ولعل أعنف رد على الرصافى هورد صديقه محمد بهجة الأثرى فقد هاجمه عندما نظم قصيدته العينية[٢١] فقال إن الرصافى طالب خلاعة وإنه جاهل ، ثم رماه بالكفر والضلال والمروق ، ومن الطريف أن ينشر الرد فى جريدة الرصافى (الأمل) ويرد عليه الرصافى رداً

---

(١٩) ديوان خيرى الهنداوى (المخطوط) .

(٢٠) الأدب العصرى ج ٢ ص ٥٥ و ٥٦ وقد جمع مصطفى عبد الجبار القاضى (مختارات فى الحجاب والسفور) وطبعها فى بغداد سنة ١٩٢٤ وأعاد نشر هذه القصيدة وقال فى مقدمة لها (وحرى بكل أديب أو أدبية يحبان العفة والفضيلة أن يجعلا هذه المنظومة دستوراً لتعالم الفتاة الشرقية) ص ١٣٠ .

(٢١) ديوان الرصافى ص ٣٣٤ .

لطيفاً هادئاً ويعذره فيما ذهب إليه ، لأنه حماس الشباب دفعه إلى ما قال ، وختم مقاله بالرجاء له بالخير [٢٢] ، وقد صدق جانب كبير من رجاء الرصافى فقدوجدت فى مجموعة شعر الأثرى الخطية قصيدتين إحداهما نشرت فى مجلة الرسالة العدد ١٣٣ وصف ما تعانيه المرأة من مشاق وعذاب ووصف فى الثانية الرجل الذى إذا بشر بالأنثى (ظل وجهه مسوداً وهوكظيم) وإن لم يكن الأثرى فيهما من دعاة السفور فإن فيهما دعوة إلى إنصاف المرأة قال :

عجبت للمـــرء وكـم داعيـــــة للعجـــب
إن بشروه بابنـــــــة يبت صـــريع الغضـب

وكان الزهاوى مندفعاً فى تأييد حقوق المرأة وسفورها ، فقد قال عنه رفائيل بطى إنه نشر مقالا فى جريدة المؤيد الأسبوعيـة المصرية فى عددها ٦١٣٨ بعنوان (المرأة والدفاع عنها) ولم يكن المسلمون على استعداد لتقبل هذه الآراء فقامت ضجة هاج لها المسلمون وأشاعوا بأن الشاعر تحامل على الدين الإسلامى فى مقاله وذهبوا متجمهرين إلى والى بغداد العثمانى وطالب أحد المبعوثين[٢٣] والى بغداد بعزل الشاعر من وظيفته فأجيب إلى ما طلب ، ولزم الزهاوى داره خوفاً من أذى الناس[٢٤] ولنعد نتلمس بعض الحقائق ونرى الجو الذى أحاط بالزهاوى فنقرأ مقاله فى جريدة الرقيب والذى وجهه إلى « ناظم الحكومة فى بغداد » فقد قال فيه « . . أسمع أن أحد المشايخ المتلبسين بالتقوى فى بغداد – هذا البلد الذى يسيطر عليه حكم الدستور وعدلك الواقى – أخذ يدير رحى فتنة ، فقام يحرض الجاهلين على الإيقاع بى باسم الدين البرىء من الظلم جزاء مقالة اجتماعية نشرت بإمضائى فى المؤيد الأسبوعى – كما فى تنوير الأفكار – دفاعا عن المرأة . . » ثم أخذ يشكك بكاتب المقال وشخصيته فقال « . . . وهى عدا كونها شبهات ضعيفة استفهامية تزول من نفسها لم يتعين بعد أكاتبها أنا ؟ أم هى مزورة على لسانى من عدو لى فى العراق ؟ والذى أرجو من الحكومة الدستورية ألا تقتص من الصابغين أكفهم بدمى إذا كان ما يريده المحرضون – أظنهم أكثر من واحد – بل تعنى بتعليمهم وإنقاذهم من الجهل لئلا تمتد أيديهم فى المستقبل إلى منكد

---

(٢٢) جريدة الأمل العدد ٦٣ السنة الأولى ١٩٢٣

(٢٣) السيد مصطفى الواعظ

(٢٤) الأدب العصرى ج ١ ص ٩ ويلاحظ المقال فى عدد (المؤيد) المرقم ٦١٣٨ الصادر فى السابع من أغسطس ١٩١٠

آخر مثلى يتمنى فى كتاباته إصلاحاً للأمة اجتماعيًّا . .[٢٥] وقد نظم الزهاوى قصة ذكر فيها أن الناس تجمهروا ثم جاءوا غضاباً صاخبين وكان منظرهم مضحكاً كما وصفه الزهاوى ، فهذا سائر على مهل وذاك يحبو وذاك يعدو وذاك يقفز[٢٦] وكأنهم ذاهبون إلى دعوة فرح لا إلى الانتقام من شخص كافر ملحد ، وقد كرر الزهاوى هذا المعنى فى قصيدة أخرى ، وعزا تجمهر الناس إلى أحد رجال الدين الذى أوغر صدورهم بأنه زنديق ومن يفتك به يدخل الجنة[٢٧].

هذه ثلاثة مراجع ذكرت تألب الناس على الزهاوى وتظاهرهم ضده للفتك به وقتله وهدر دمه ، ولنناقش هذه المصادر وقضية المظاهرة ضد الزهاوى :

المصدر الأول رفائيل بطى وقد أخذ معلوماته من الزهاوى مباشرة وقد صاغ الزهاوى ما أراد وأسبغ على نفسه ما اشتهى وهو لا يخرج عما نظمه الزهاوى .

المصدر الثانى ما كتبه الزهاوى فى جريدة الرقيب وفيه يعبر عما حدث له من آلام شاكياً للوالى طالباً حمايته متبرئاً من أقواله ، وليس فى النص شىء عن تجمهر الناس وقيام مظاهرة ، وإنما هناك من يحرض الناس للإيقاع به . . وهذا كثيراً ما يحدث . . فالمصدر الأول والأخير عن قيام مظاهرة ضد الزهاوى هو الزهاوى فى شعره ونثره . . وليس من المعقول أن تحدث مظاهرة ضد الزهاوى ولا تقف بجانبه جريدة الرقيب وتسنده كما ساندت الرصافى لذلك فأنا فى شك مريب من حدوث مثل هذا الأمر وكل ما حدث للزهاوى إرسال كلمة تهديد مغفلة التوقيع[٢٨] فصور خياله حدوث مظاهرة تريد الفتك به فنظم قصيدة رسم ما تخيله فيها واستحلى الأمر وكرره واعتقد هو بصحته ، وقد يرد قائل لم يعزله ناظم باشا من منصبه ؟ . والجواب عنه بأن الزهاوى كتب المقال ولم يتفق مع رأى ناظم باشا وربما استرضى بعض رجال الدين ، وقد كان ضد الزهاوى لأنه كان يكره الاتحاد بين الذين كان الزهاوى منهم ، ولكن لم تحدث مظاهرة ضد الزهاوى . . ولو كان الرأى إلى نشر شعره ، ثم إن الرقيب آزرته بمقال نشر فى ٦ ذى الحجة ١٣٢٧ ونشر الزهاوى قصيدته ثم كلمته الموجهة إلى ناظم باشا فى ٧ شوال ١٣٢٨ ، وهناك فرق زمنى بين نشر القصيدتين ، ولعل ما أثار رجال الدين على الزهاوى هو تطرفه فى الدعوة التى لم تؤد إلى مظاهرة .

(٢٥) جريدة الرقيب العدد ١٧٢ السنة الأولى ٧ شوال ١٣٢٨ هـ .

(٢٦) ديوان الزهاوى (مصر ١٩٢٤) ص ٣٠٧ إلى ٣٠٩ .

(٢٧) نفس المصدر ص ٩٠ إلى ١٩٣ .

(٢٨) حقيقة الزهاوى للعبيدى ص ٦٠ .

الزهاوى بطبعه خائف شكاء بكاء يهول الأمر لإبراز نفسه بصورة البطل لكى يغطى على خوفه وهو مريض سقيم إذا أصيب بألم صرخ وجأر وبكى واشتكى فيقول :

أشكو إلى أى هذى الناس مظلمتى وقد درى باضطهادى الترك والعرب[٢٩]

وفى قصيدة أخرى يصف جزعه وكأنه طفل يبكى فيقول :

لى تحت أستار الدجنة رنة مشفوعة بتنهدى وزفير
مرفوعة لخفىّ سمع راحم مدفوعة من قلبى المكسور[٣٠]

بل يتصاغر فى هذه القصيدة حتى يصف نفسه بالعصفور الذى تهاجمه الغربان والنسور فيهرب متوارياً خائفاً فى جحر جدار ، ومن كانت هذه صفاته لاشك بأنه يحاول أن يجعل من نفسه بطلا بعد فوات الأوان ويسبغ على نفسه صفات الزعامة والإصلاح ولو كان وجود المظاهرة حقيقة وأن الوالى عزله بسبب مطالبته فى الإصلاح فلمَ لمْ يذكر ذلك فى قصيدته التى سب بها ناظم باشا بعد عزله وكان سبب تكبته[٣١]. وتظهر أخلاق الزهاوى جلية فى شعره فقد وجدناه يئن ويبكى ويزفر طول الليل ويذرف الدمع السخين خوفاً وهلعاً ، أما الرصافى فقد كان معتزًّا بنفسه وبكرامته ويفخر بما يصيبه من الألم ويتحمله ، ولا أشك فى أن الرصافى كان يتألم ويبكى ويهلع شأن كل إنسان ، ولكن الرصافى لم يحاول أن يرسم فى شعره شخصيته قلقة خائفة .

ولست أنكر فضل الزهاوى على تحرير المرأة وصدق دعوته ونضاله فى سبيلها ، فشعره يطفح بالأمثلة الحسنة ولكن لم يكن مركزّ الآراء موحد الموضوع عميق الفكرة فهو يطالب بحرية المرأة وسفورها وإعطائها المركز اللائق بها ، ولكنه يعالج بنفس القصيدة مشكلات أخرى ، ولا ينسى أن يحشر نفسه ، فمن شعره فى مهاجمة الحجاب يخاطب فيه الفتاة :

مزقى يا ابنة العراق الحجابا واسفرى فالحياة تبغى انقلابا
مزقيه واحرقيه بلا ري ث فقد كان حارساً كذابا
مزقيه وبعد ذلك أيضاً مزقيه حتى يكون هبابا
وانزعيه بقوة وطئيه واجعلى فى فم الحنيق ترابا

(٢٩) ديوان الزهاوى ٣٠٦ - ٣٠٧ .
(٣٠) المصدر السابق ١٠٩ .
(٣١) المصدر السابق ص ٧٣ وقد فرقها فى الديوان حسب موضوعاتها فى الصفحات ١٩٠ و١٩٣ و٢٧٦ و٣٠٧

ويهاجم دعاة الحجاب ويرد عليهم فيقـــول :

زعمـوا أن فى السفور سقوطـــاً ... فى المهـــاوى وأن فيـــه ضرابا
وإذا ما طالبتهـــم بدليـــــل ... يثبت الدعـــوى أوسـعوك سبابا
كذبـوا فالسفور عنـــوان طهـــر ... ليس يلقى معـــرة وارتيـــابا (٣٢)

ويتلخص رأى الزهاوى فى السفور بقوله :

قال هل بالسفور نفـــع يرجـى ... قلت خير من الحجـــاب السفور
إنما فى الحجاب شلّ لشعب ... وخفـــاء وفى السفور ظهـــور
كيف يسمو إلى الحضـــارة شعب ... منه نصف عن نصفـــه مستور (٣٣)

وقد عالج الزهاوى فى شعره مكانة المرأة وبحث ما تعانيه من سوء المعاملة وتطرق إلى تعليمها وعكس لنا أحاسيسه الشخصية أكثر مما عكس لنا مجتمعه ، فقد كان الزهاوى مريضاً مصاباً بالأوجاع والأسقام ولا يحنو عليه ويرأف به سوى زوجه ، وكان صدى هذه العناية عميقاً فى نفسه فأراد أن تعامل المرأة معاملة مثلى ولم يكن له من شفيع إليها غير لسانه فأطال فيها القول وأشاد فى شعره فى الدفاع عنها وطالب بمعاملتها برقة وحنان ، ولم يكتف بذلك بل هاجم الرجال وقال إنهم قساة غلاظ القلوب مع أن الرجل فى كل زمان ومكان يذوب رقة مع المرأة ويعاملها معاملة تختلف عن معاملة الرجال وخاصة فى المجتمع العراقى ، ولم يكتف بذلك بل بالغ فى أوصاف المرأة فوصفها بالربيع والأزاهير ، وأن صوتها الموسيقى الرائعة وهى التى ترعى زوجها بقلب محب عميق الحب ولولا وجودها لما طابت الحياة وأنه عبد مطيع لها ، ثم يجمل سعادته ، النفسية بأن تطيعه زوجه وأن يطيعها فقال :

سعادة المـــرأة زوج ... يطيعهـــا وتطيـــع (٣٤)

فسعادته هو أن يطيع زوجه ، ثم استدرك وأضاف أن تطيعه لاستكمال البيت . وقد كان الزهاوى يعطى زوجه كل الأهمية فى شعره ، وكأنى به كان ينظم وأمامه زوجته ، وقد نسى فضل الأم التى لا تقل قيمة فى أهميتها عن الزوجة ، ولعل حرصه على رضا زوجه هو الذى دعاه إلى ذلك . وقد كرر هذه المعانى كثيراً فى شعره وأكد على ضراوة الرجل وصبر المرأة كما

---

(٣٢) اللباب ص ٣٣٥ – ٣٣٩ .
(٣٣) الأوشال ص ٣٣٥ – ٣٣٩ .
(٤٣) ديوان الزهاوى ص ٣١٠ – ٣١١ .

بحث مشكلات المجتمع كالطلاق وزواج الفتاة بعجوز[٣٥]وبإنسان تكرهه أو برجل سيئ الخلق شرس الطباع[٣٦]وقد طالب الزهاوى بمساواة المرأة بالرجل واتخذ من الغرب نموذجاً لهذه المساواة فقال :

للمرأة اليوم فى مجلس القضـــاء محـــل
للمـرأة اليـوم فى البرلمان عقـــد وحـــل
للمـرأة اليوم فى استكشاف الحقائـــق شغـــل [٣٧]

ورأى صورة الأسرة السعيدة الناجحة هى فى أوربا ، والبيت يقطر سعادة وهناء حين يمرح فيه الأطفال ، فقال :

بيت نظيف وأولاد قد ازدهـــروا كأنهم زهـــر فى الروض ينتقل
والبيت فيـــه نظام حين تبصره وإنـــه لنظـــام مـــابه خلـــل
تبقى المودة حتى المـوت بينهمـا فما هنالك شنآن ولا ملل [٣٨]

وكما هوجم الرصافى فقد هوجم الزهاوى واتهم بالإلحاد والكفر والزندقة[٣٩]وكان مركز دعاة السفور بغداد ، لأنها أكثر تأثراً بالحضارة والحركة ومركز الثقافة[٤٠]

أما دعاة الحجاب فقد قاوموا الدعوة إلى السفور منذ ظهورها فى يومها الأول ، وبقى هؤلاء صامدون يحاربون الدعوة للسفور وحرية المرأة وتعليمها ، ومن ثم بدءوا يتساهلون ويعلمون المرأة ، فقد تغيرت الأحوال العامة ودخلت الحضارة فى الشرق وتطورت المجتمعات الشرقية بصورة عامة وأخذت تنخر فى القوى المحافظة يوماً بعد يوم وقد كان من أشد المعارضين للسفور رجال الدين ومن أقواهم أسلوباً الشيخ جواد الشبيبي ، فقد وضع مشكلة السفور فى مصاف مشكلات الوطن وخطوبه الجسام التى أقلقت باله وأرقته ، فهى مشكلة لا تقل قيمة فى نظره عن الاستعمار وفساد الحكم وفقر العمال ، وقد وصف السافرات بأنهن داعيات

---

(٣٥) المصدر السابق الصفحات ٣٨ و٣١٧ و٣١٨ و٦٨ – ٧٣ والأوشال ص ٧١ .
(٣٦) ديوان الزهاوى ص ٣١٠ و ٣١٤ .
(٣٧) المصدر السابق ص ٣١١ .
(٣٨) الأوشال ص ٧٠ .
(٣٩) لاحظ قصيدة محمد رشيد الشيخ داود مدرس جامع الحيدرخانة فى (النجف) العدد ٥٤ السنة الثانية الصادر فى ٥ أيلول ١٩٢٦ .
(٤٠) توجد إشارة للسفور فى شعر الصافى النجفى فى ديوانه الأمواج ص ٧٩ .

إلى الخلاعة وأن السفور منعه الرسول والقرآن ، وسفور الوجه يكشف حمرة الخدود وزهو الوجوه ، وقد تشدد الشيخ جواد فى رسمه للطريق الأمثل الذى يجب أن تحتذيه فى الكلام واللبس ، ولو عدنا بأذهاننا إلى العصر الذى عاش فيه الشبيبى لوجدنا مقدار أهمية هذه القصيدة ، فقد كانت الهوة سحيقة بين حياة الرجل وحياة المرأة ، ولكل من حياته ما يختلف عن غيره ، ولعل وجود (الحرم) و (الديوه خانه) يعطينا فكرة واضحة عن هذين العالمين اللذين ابتعد بعضهما عن بعض ، ولم يكن يطلب دعاة السفور إلا كشف الوجه والاحتفاظ بالعباءة أو العباءتين . . فلا نعجب أن قاوم المحافظون السفوريين ، وفى قصيدة (الجواد) نموذج رائع لما كان يفكر به آباؤنا ، قال :

منع السفور كتابنا ونبينا ... فاستنطقى الآثار والآيات
تلك الوجوه هى الرياض بها ازدهت ... للناظرين شقائق الوجنات
كانت تكتم فى البراقع خفية ... من أن تمس حصانة الخفرات
واليوم فتحها الصبا فتساقطت ... بعواطف الألحاظ والقبلات
صونى جمالك بالبراقع إنها ... ستر الحسان ومظهر الحسنات

ويمنع الفتاة من أن ترفع صوتها لأن الجهر بالصوت ليس للفتاة إنما للفتى المحاج أو الخطيب ، ويوصى الفتاة فى ملبسها فيقول :

وضعى الصدار على الترائب إنه ... حق عليك فحق نهدك ناتى
وتماثلى فى البيت صورة دمية ... مكنونة الأعضاء فى الحبرات[٤١]

وقد كانت أكثر الصحف تؤيد الدعوة إلى الحجاب ، فإذا قرأنا الجرائد التى صدرت بعد عام ١٩٢٢ نراها تحمل علم الثورة على السفور ، ومن هذه الجرائد والمجلات : تنوير الأفكار والرشاد والمفيد والبدائع . أما الجرائد التى كانت تؤازر حركة السفور فكانت أولاها جريدة العراق والصحيفة والعالم العربى وليلى . وقد كان أنصار الحجاب توفيق الفكيكى وجميل المدرس وخليل إسماعيل ومصطفى عزة عبد السلام ومحمد بهجة الأثرى والملا عبود الكرخى وعبد الرحمن البناء وحسين الظريفى وغيرهم . وكان من دعاة السفور حسين الرحال ورزوق غنام ومصطفى على وعونى بكر صدقى ورفائيل بطى ومصطفى عبد الجبار القاضى وغيرهم[٤٢]

---

(٤١) ديوان الشاعر المخطوط فى مكتبة الشاعر محمود الحبوبى

(٤٢) لاحظ (مختارات فى الحجاب والسفور) جمعها مصطفى عبد الجبار ، ففيها نماذج فريدة مما نشر وقيل عن =

وقد كان كل مطبوع ينشر ما يراه ملائماً لحظته فكانت مجلة تنوير الأفكار تقول إن الحجاب مشروع وتذكر منافع الحجاب للفتاة والمجتمع(٤٣) وتهاجم مجلة الرشاد رزوق غنام لأنه طالب بإرسال الفتاة إلى أوربا لكى تتعلم أسوة بالرجل ، فترد المجلة قائلة إن إرسال البنات إلى أوربا معناه إرسالهن للتمرين على الخلاعة والفساد (٤٤) ، وتنشر قصيدة للبناء يهاجم بها السفوريين ، ويعتبر كشف الوجه أمراً لا تقره الشريعة الإسلامية ، وخشى على نفسه من الفتنة والغواية والانصياع لداعى الهوى ، ولم يخف على المرأة من الفساد والتهتك واعتبر دعوة السفور شرك لاصطياد الضعاف للتمتع بالمرأة ، لذلك خاطب المرأة بقوله :

وجـــوه الغانيـــات بلا نقـــاب تصيـــد الصيد فى شرك العيـون
إذا برزت فتـــاة الخـــدر حسرى تقود ذوى العقول إلى الجنـــون (٤٥)

ثم يحـذر الفتاة من الفخاخ المنصوبة لها ، وفى القصيدة الثانية يظهر ألمه واضحاً ، واعتبر السفور فتنة وشراً ، وشبه المرأة بالزهرة فى كمها فإذا تفتحت قطفت أو كالجوزة يراد كسر قشرها لتؤكل ويبدو تمسكه بالحجاب من قوله عن لسان الفتاة :

برقعى وسط محيطى شرفى لم أحُد عنه ولو ذقت العـــذابا

ولم يكتف بهذا إنما خاطب العراقيين بقوله :

أيهـــا القـــوم أصلحوا أنفسكم خاب من رام سفور الوجه خابا(٤٦)

وقد كانت جرائد دعاة السفور تناضل فى الذود عن كيان السفور وتستحسنه وتنشر أخبار نساء العالم ، وتذكر تقدمهن فى حركة الإصلاح فى تركيا وما تحوزه فى أمريكا وأوربا من المناصب بعناوين ضخمة لتدلل على مكانة المرأة وقدرتها وتصف حالة المرأة الاجتماعية وتبحث فى أنجع الطرق لإصلاحها والدعوة إلى السفور لأنه التجديد والبناء ، غير أن

= السفور والحجاب حتى ١٩٢٤ (بغداد ١٩٢٤) وقد كتب الصديق الأستاذ خيرى العمرى مقالات ممتعة عن هذه المشكلة نشرت فى ملحق جريدة الشعب الذى كان يصدر باسم (عدد الأسبوع) فى الأعداد ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ صدرت عام ١٩٥٨ .

(٤٣) تنوير الأفكار العدد ٣ السنة الأولى الصادر فى ١٩٢٨ .

(٤٤) مجلة الرشاد العدد ٨١ السنة الثانية الصادر فى ٣١ تموز ١٩٢٨.

(٤٥) مجلة تنوير الأفكار العدد ١٠ السنة الأولى ١٩٢٩

(٤٦) المفيد العدد ٢٧٠ السنة الثانية ١٩٢٤ ونشرت فى الديوان ص ١٦٥ ج ٢ ونشرت فى مختارات من الحجاب والسفور ص ١٢٠ .

أكثر هذه الجرائد لم يكتب لها الاستمرار ولعل اختصاصها الزائد بالمرأة وعدم وجود المناصرين لها هما اللذان قضيا عليها ، لأن الشعب العراق آنذاك شعب جاهل تؤثر فيه الخرافات ويسير دون تفكير مع الذين يراهم زعماءه .

ومن الطريف أن يشارك الشعر العامى فى هذه الدعوة ، فقد هاجم الملا عبود الكرخى دعاة السفور بقصيدتين عنوان الأولى (بعداً ثم بعداً يا سفوريين) والثانية عنوانها (حرية النسوان وفتاة غسان)[٤٧] وكانت الدعوة إلى تعليم المرأة تسير جنبا إلى جنب مع الدعوة إلى السفور ، فقد اتفق أكثر العراقيين بعد تشكيل الحكم الوطنى على ضرورة تعليمها سواء منهم من يدعو إلى السفور ومن يدعو إلى الحجاب ، فقد كان الإنسان لا يجرؤ على الدعوة إلى تعليمها خوف أن تؤدى معرفتها بالكتابة إلى فساد أخلاقها . ولما احتل الإنكليز العراق فكروا فى إنشاء مدارس للبنات أسوة بمدارس البنين ولكنها لم تفاجئ الناس بفتحها ، وإنما أعلنت نظارة المعارف فى سنة ١٩١٩ إعلاناً فى الجرائد قدمت له بمقدمة قالت فيها (إن الهيئة الاجتماعية لكل أمة تتقدم برجالها ونسائها معا فلا يصلح الرجل وحده إذا لم يستعن بالمرأة التى هى أساس العائلة وسعادة الأمة ، فالمرأة الجاهلة لا تعرف شيئاً من مطالب هذا العصر ، عصر الحضارة والعلم ، ولقد أسهب علماء التربية والاجتماع فى أبحاثهم عن ضرورة تربية المرأة تربية صحيحة لأنها محور سعادة العائلة . .)[٤٨] ثم ذكرت الدروس التى ستدرس ، وقد سار تعليم المرأة سيراً بطيئاً فلم تؤسس فى سنة ١٩٢٠ – ١٩٢١ غير ثلاث مدارس بينما كان عدد المدارس البنين ٨٥ مدرسة ، ووصل فى السنة الثانية إلى ٢٧ مدرسة حتى وصل العدد عام ١٩٥٣ – ١٩٥٤ إلى ٢٥٦ مدرسة ابتدائية ، وتأخرت مدارس البنات الثانوية حتى عام ١٩٥٣ – ١٩٥٤[٤٩] وقد كان لدعوة الجزائد إلى نشر التعليم بصورة عامة ودعوة السفور عامل حسن الأثر ، وقد آزر الدعوة كثير من الشعراء ولم يقدر المعارضون على وقف عجلة الزمن والتقدم ، وقد اكتسحهم سيل المدنية ، فانتشرت المدارس وشاركت المرأة الرجل فى الحياة العامة وفى كل الكليات عدا (الشرطة والجيش والشريعة) وقد برزت فى الحياة الاجتماعية برغم حملات الصحف التى كانت تثيرها النسوة ليسمعن صوتهن ويثبتن وجودهن .

---

(٤٧) مختارات فى الحجاب والسفور ص ١٢٣ – ١٢٨ .

(٤٨) جريدة العرب العدد ٧٠١ السنة الثالثة ١٩١٩ .

(٤٩) فى (التقرير السنوى لوزارة المعارف) التفصيل فى الصفحات ١٠ ، ٤٠ ، ٥٠

٣

الفلاح والإقطاع

حالة الفلاح العراقى تدعو إلى الألم والحسرة الموجعة فلم يصبه أى تطور اجتماعى ملموس طوال هذه الفترة ، لأن أكثرية مالكى الأرض أو المهيمنين عليها هم من رؤساء العشائر الذين يستخدمون أبناء العشيرة لمنافعهم الخاصة ، وقد فقد الفلاح الضمان الذى يحميه من الرئيس الذى كان يعطيه أيام الدولة العثمانية[١] بعض الدخل ليعيش عليه لأنه كان يعتبره فرداً من أفراد العشيرة وعليه أن يضمن له شيئاً من المورد . غير أن هؤلاء الشيوخ أخذوا يستولون على الأرض ويسجلونها بأسمائهم بعد أن كانت تسجل باسم العشيرة وتبقى باسم الدولة ، وقد ساعد قانون تسوية الأراضى الشيوخ على استملاك الأراضى وتسجيلها بأسمائهم وحوّل أبناء العشيرة إلى فلاحين ليس لهم غير جزء من الإنتاج ، فتحول ابن العشيرة الذى كان له أرض يملكها إلى أجير يتقاضى أجرته كمية محدودة من الإنتاج . مع أنه يقوم بكل ما تحتاج إليه الأرض من حرث وبذر وعناية طول الموسم الزراعى ، ثم يحصد الإنتاج فيأتى شيخ القبيلة ويأخذ أكثره . ولم تجده[٢] عوامل الرفاه المتيسرة فى العراق من وفرة المياه وخصوبة الأرض وتدفق النفط فى رفع مستواه وإسعاده[٣] فما يزال الجوع القاتل ، والمرض الفتاك والجهل المطبق تعبث به فيعيش فى فقر لم ير الغرب مثله[٤] وكثيراً ما اضطر إلى ترك الأرض التى بذل جهداً فى شق ترعها لأنه عاجز عن شراء البذور اللازمة[٥] لها لتحكم

---

(١) كانت الأرض فى العهد العثمانى ملك السلطان ولما خسرت تركيا الحرب ودخل العراق تحت سيطرة الاستعمار الإنكليزى ثم الحكم الوطنى أصبحت الأرض ملكاً للدولة وكانت تؤجرها لشيوخ العشائر وقد كان يدخل فى الاستئجار عدة عوامل كنفوذ الشيخ وعدد أفراد العشيرة ومقدار خطره .

(٢) Land Reform & Development in the Middl East PP. 135. 136. 137.

(٣) المصدر السابق

(٤) مقدمة كتاب وارنر Land & Povtrty the Middle East.

ونظرات فى إصلاح الريف – عبد الرزاق الحسنى ص ٢٦ و ٢٨ (بيروت ١٩٥٤) ومجلة عالم الغد مقال باقر الدجيلى .

(٥) راجع الأسباب الموجبة لسن قانون استثمار أراضى الدجيلة .

رجال الإقطاع والمرابين فى مورده[٦].

وقد ساعد ضعف الحكومات المركزية المتوالية فى العراق على توسيع نفوذ الإقطاع ، إذا أخذ كل إقطاعى يوسع أراضيه دون حسيب أو رقيب[٧] بطرق شتى ، مرة بإغراق الفلاح بالديون وأخرى بأخذ الأراضى بنفوذه وقوته حتى غدا الفلاح أجيراً مستمراً يشتغل عند الملاك والشيوخ لاستحالة تسديد ديونه من الحصة الضئيلة التى يتسلمها من الحاصل ، فهو لا يأخذ إلا حصصاً تتراوح بين ٥٠ ٪ - ٤٠ ٪ وقد لا يتجاوز حقه من الإنتاج ٢٥ ٪[٨] وقد قدرت الباحثة الإنكليزية « دورين وارنر » دخل الفلاح العراقى بين خمسة باونات وخمسين باونا[٩]، ومن هذا المبلغ يصرف لطعامه ولشرابه وكسوته له ولأسرته . فلا نعجب إذا سادت الأمراض بين الفلاحين وتفشى سوء التغذية بينهم إذ قلما يأكل الفلاح طعاما يسمن من جوع أو يغذى حاجة الجسم المجهد الضرورية ، ويتبلغ بالخبز وحده فى أكثر الأحيان ، أما اللحم فلا يفكر فيه يوماً من الأيام لأنه لن يجده إلا على موائد الشيخ الإقطاعى الذى يقيم الحفلات لذوى السلطة ويعطى الفضلات للفلاحين الذين ينتظرون فروغهم من الأكل بصبر زائد .

وليس للفلاح قانون يحميه من الإقطاعى فهو يطرده متى أراد ويلاحقه بالديون التى أخذها ليأكل بها وليعيش ، وقد حكمت بعض القوانين عليه بالبقاء فى خدمة الإقطاعى حتى يسدد ديونه ولا يجوز لمالك آخر أن يستخدمه مادام مديناً بمبلغ لمالك غيره[١٠] ومن هجر القرية تخلصاً من هذا الرق فالسلطات تلاحقه وتحجز أجرته اليومية لتسديد ديون الإقطاعى[١١] أما الماء النقى فهو من الكماليات التى لا يفكر فيها الفلاح ، فقد اعتاد على الماء يشربه من الأنهار مباشرة يحمله فى جرار وحباب لخزنه لا لتصفيته ، ويسكن فى بيوت مبنية من الطين وسقوفها من الجريد ومن جذوع النخل ، ويعيش مع حيواناته فى حجرة واحدة لا نوافذ لها ، لأنه يخشى البرد القارس إذا فتح نافذة ، وفى بعض المناطق من جنوبى العراق يسكن الفلاح فى

---

(٦) الملكية الصغيرة فى العراق - بغداد ١٩٥٣ الصفحات ١ و٢ و٧٥ .

(٧) لبحث مشكلة الإقطاع فى العراق يراجع الإقطاع والديوان فى العراق لعبد الرزاق الظاهر . ونظرات فى إصلاح الريف لعبد الرزاق الهلالى . والإقطاع فى العراق لإبراهيم كبه .

(٨) نظرات فى إصلاح الريف (بيروت ١٩٥٤) ص ٢٦ و ٢٨ وعالم الغد العدد ٢٣ / ١ مقال لباقر الدجيلى.

(٩) الأرض والفقر لاحظ المقدمة .

(١٠) قانون حقوق وواجبات الزراع رقم ٨ لسنة ١٩٣٣.

(١١) المادة ١٦ ب من القانون السابق الذكر.

صرائف معمولة من الحصر والباريات ، وقد يفترش الأرض أو يبنى له دكة من الطين مرتفعة عن الأرض قليلا(١٢) ، وقد انتشرت هذه الصرائف حوالى بغداد هرباً من جحيم الإقطاع وأملاً فى الكسب من العاصمة بما يقوم به الفلاح من أعمال فى مختلف مناحى الحيـــاة ، وقد حاولت بعض الحكومات العراقية إصلاح حال الفلاح العـــراقى بتشييد بعض القرى الحديثة لرفع مستوى حياة الفلاح وتشجيع الملكية الصغيرة فى مشروع الدجيلة(١٣)غير أن الإقطاعيين وكبار المـلاك كانوا يقاومون هذه الإصلاحات بقوة خوفاً من أن ينتبه الفلاح ويحد من سلطانهم ، وقد ساعد على مؤازرتهم ، تشابك مصالح رجال الحكم مع مصالح الإقطاع(١٤)لذلك لم ينفذ قانون تشييد القرى بالرغم من مرور عشرين سنة على تشريعه(١٥) لعدم وجود قوة تضطر الحكومة إلى العمل به والحد من شهوات هؤلاء ، ولن يحد من أطماعهم وسلطانهم غير صدق النية والقوة(١٦) .

أما التعليم بين الفلاحين فمتأخر جداً وشيوخ القبـائل يكافحونه مكافحة جبارة فهم يرتعبون من تعليم الفلاح خوفاً من أن يشعر بالغبن الواقع عليه من قبلهم . ومما يؤسف له أن يساعد الإقطاع وشيوخ القبائل موظفو الدولة ليحصلوا على رضا الشيوخ وهداياهم وكثيراً ما هددت أرواح المعلمين وسرقت أمتعتهم حتى جزعوا وتركوا العمل من بين ظهرانيهم ، ولا تنس معاملة المعلم بالاحتقار والازدراء وعدم حمايته من موظفى الإدارة ورد الأذى عنه وكثيراً ما يتعامون عما يصيبه ويلقون اللوم على المعلم نفسه(١٧).

هذه حال الفلاح العراقى العامة انعكست فى الشعر العربى فى العراق وقد حاول الشعراء إسعاده لأنه جزء من هذا الشعب الكبير . والملاحظ أن شعراء الفرات ولا سيما النجف هم أكثر عناية بمشكـــلات الفلاح لاحتكاكهم المباشر به ، ولأن أكثرية الشعراء هم من طبقة فقيرة لهم صلات وثيقة به ، ويقابل هذا الأمر شعراء المدن الذين عنوا عناية خاصة بالفقر والفقراء ومشكلاتهم . ولعل أبرز شاعر عالج مشكلة الفلاح بعمق وبإخلاص هو محمد صالح بحر العلوم فقد أهدى ديوانه العواطف إلى الفلاح قائلا :

---

(١٢) الملكية الصغيرة فى العراق ص ٢٦ و٧٨ ومقدمة الأرض والفقر .

(١٣) قانون تشييد القرى الحديثة رقم ٧٠ لسنة ١٩٣٦.

(١٤) الأرض والفقر ص ١١٩ ونظرات فى إصلاح الريف ص ٤٢ و٤٦.

(١٥) وقت كتابة هذا البحث كان أغسطس ١٩٥٦.

(١٦) حدث ثورة ١٤ تموز (يوليو) الخائدة من هذه الشهوات وحدت سلطانهم .

(١٧) قضى الكاتب بعض سنى حياته معلماً فى قرى ديالى ، وتلمّس مشكلات الفلاح بنفسه .

تقبـــل أيهـــا الفـــلاح منى عواطف يستبان بهـــا شعورى
ولا تحـــزن إذا لم تلق ثوبـــاً يقيك ، وثوب غيرك من حريـــر
فشأن الدهـــر لم يعـــرف ضعيفاً ولم يألف مجـــاراة الفقـــير

وقد فاض الديوان بوصف حالة الفلاح عامة وما أصابه من بؤس وشقاء وجهل واستغلال ومرض وتأخر وانحطاط فى حياته فنى إحدى قصائده سمى الفلاح (الحى المقبور)[١٨] وصف بها ما يعانيه الفلاح من آلام وكيف استغله أصحاب القصور ولم يعطوه ما يقابل أجره وكده ، إنما كان جزاءه الحرمان والجوع ، فهو يأكل أردأ الأطعمة ويتحمل برد الشتاء وزمهريره ، وحر الصيف رمضاءه صابراً على عيشه مع الحيوانات ، وبعد أن أتم وصفه حفّز الفلاح وأثاره على أولئك الذين تآمروا على قتله البطىء لأن قلوبهم خالية من الشعور ونفوسهم مجردة من الأحاسيس والعواطف ، مبتعدة عن الإنسانية والرحمة . وفى قصيدة أخرى يحيى الثورة ويسمى الثورة العراقية ثورة الفلاح[١٩] اعترافاً بما بذله من جهد ، فقد ضحى بروحه وبماله وحارب المحتلين لكى يجليهم عن أرضه بعزيمة لم تعرف الكلل وقوة لم تعرف التوانى والملل ، وناضل بصبر ما عرف المهادنة حتى انتصر الدخيل وأذله . لكنه عاد إلى الكوخ المتهدم ، يعيش مع السوائم فقد أذله السادة وهدر كرامته الحاكمون ، فقد غنموا الهناء وعاد هو يجرر رجليه للشقاء . وفى قصيدة ثالثة سماها (الفلاح) استعرض مشكلات الفلاح العامة وقارن بين حياته وحياة أولى الترف والنعيم الذين سرقوا كده وتعبه ، وقد ألقى هذه القصيدة فى النجف وكان من جرائها أن حكم المجلس العرفى العسكرى عليه بالسجن المؤبد سنة ١٩٣٥ ، خاطب الفلاح بها قائلا :

أنت يا فـــلاح عانيت البـــلاء واجتنى غـــيرك أثمـــار التعب
تسهر الليـــل لجعـــل الأغنيـــاء بارتيـــاح وهنـــاء وطـــرب

وفيها يقارن بين النعيم الذى يرفل فيه أصحاب القصور وبؤس الفلاح الذى يرزح تحت وطأته ، مع أن هذا النعيم هو من عمل الفلاح ومن كده وهو أجدر به وأحرى بالانتفاع منه فقال :

كم نعيم أحرزتـــه فئـــة هـــو من دونك بؤس فاتك

(١٨) العواطف (النجف ١٩٣٧) ص ٢٠ – ٣٢ .
(١٩) نفس المصدر ٨٩ – ٩٥ .

وقصـــــور سلبتهـــا سـلطة منك بالجـــور وأنت المـالك
ومصـــابيح علتهـــا بهجـــة هى لولاك ظـــلام حـــالك
أبهـــذا الوضع تحيـــا أمـــة وبهـــا الظلم وبـــاء هالك

غير أن هؤلاء المتنعمين لا يعرفون له حقًا فيجب أن يفرضه عليهم ويأخذه منهم ، فقد سرقوا هذا الحق منه فيجب أن يترك المنجل جانباً ويفرض قوته عليهم لأنهم قوم لا يعرفون غير القوة قال :

حلقت آهـــات شكواك عـــلى جاحـــدى فضلك ليلا فى السما
فاستحالت شهبـــاً ترعى المـــلا وتـــرى من لا يراعى الذمـــا
فاترك الـــزرع ونـــح المنجـــلا عنك حينـــاً واملأ الأرض دمـــا
وبحـــد السيف حاسب دولا بينهـــا حقك أضحى مغنمـــا[٢٠]

وليس فى الديوان حلول لمشكلات الفلاح ، أو تركيز على فكرة محدودة للإصلاح إنها عواطف ثائرة اتقدت عندما رأى حالة الفلاح المتردية فأراد أن يصلحها . . بإسعاد الفلاح ورفع مستوى حياته ، وليس من عمل الشاعر أن يقدم مشاريع إصلاحية ، إنما عليه إبراز الحالة السيئة لينبه الشعور ، وقد كان محمد صالح بحر العلوم عميق الشعور صادق الإحساس ، فاندفع بشعوره وإحساسه بالمطالبة بالإصلاح وتغيير الأوضاع السيئة التى يئن منها العراق . والشاعر عنيف فى المطالبة صريح فى الدعوة إلى الثورة وتحطيم كل ما يقف أمام رغبات الشعب ، لذلك لم تكن دعوته فى يوم من الأيام تلاقى بالقبول من الحاكمين ، فقد قضى جل حياته سجيناً معذباً منكلاً به أشد التنكيل حتى ابتلى بأمراض وأسقام وأصيبت أعصابه بالأمراض ، ولكنه ما يزال يناضل بصبر وجلد وعزيمة ومضاء وما يزال مودعاً فى السجن من جراء المطالبة المستمرة فى سبيل الإصلاح الذى تبلورت آراؤه فيه أخيراً (١٩٥٦) ولعل ما يرعب قلوب الحاكمين منه الثورة العارمة التى تكتنف شعره ، فهو يقول :

يا ابنة الريف اجمعى لى حطبـــاً وخـــذى من زفـــراتى ضرمـــا
واحـــرقى كل ظلـــوم غاشم يجـــد اللـــذة فى أن يظلمـــا
واتركى الرحمـــة فالناس هنـــا همـــج يحتقـــرون الرحمـــا[٢١]

(٢٠) العواطف ص ١١٩.
(٢١) العواطف ١٤٦.

والشاعر النجفى الثانى الذى عالج مشكلة الفلاح هو محمد مهدى الجواهرى ، فقد عالجها بهدوء وسكون ووصف المشكلات وحذر مما تؤول إليه مثل هذه المشكلات ، فالترف العاطر والبطر المترف والهناء المغرور إلى جانب الجوع الكافر والعرى المخزى والمرض الفتاك والفاقة المهلكة أمور ستؤدى بالبلاد إلى أسوأ النتائج وأفظع العواقب ، فسيأتى اليوم الذى يستفيق فيه هؤلاء الفلاحون الفقراء الجياع المعذبون بسياط الجشع ، ويقف متسائلا كيف ترضى دولة تحترم نفسها أن يكون شعبها متأخراً إلى درجة الفلاح العراقى فقال :

ألا قوة تستطيع دفع المظالم ... وإنعاش مخلوق على الذل نائم
ألا أعين تلقى على الشعب هاوياً ... إلى حمأة الإدقاع نظرة راحم
وهل ما يرجى المصلحون يرونه ... مواجهة أم تلك أضغاث حالم
تعالت يد الإقطاع حتى تعطلت ... عن البتّ فى أحكامها يد حاكم

ويتحدث عن الأرض التى هى ملك الجميع فيقول :

هى الأرض لم يخصص لها الله مالكاً ... يصرفها مستهتراً بالجرائم

ويصف حالة الفلاح وكوخه المظلم وجوعه ويستثير همم ذوى النخوة والضمير بقوله :

حنايا من الأكواخ تلقى ظلالها ... على مثل جب باهت النور قاتم
تلوّث سياط فوق ظهر مكرم ... من اللؤم مأخوذ بسوط الألائم
وباتت بطون ساغبات على طوى ... وأتخمت الأخرى بطيب المطاعم
أهذى رعايا أمة قد تهيأت ... لتستقبل الدنيا بعزم المهاجم ؟

وحاول إقناع الحاكمين بالمنطق والحجة بوجوب مساعدتهم ورفع مستوى حياتهم ليكون شعبهم قوياً يدافع عنهم يوم الكريهة ، إذ كيف يحمى الضعيف وطنه وهو الهزيل الخاوى ؟ وهل يرضى أولو الأمر أن تكون الرعايا جياعاً عراة متهدمين ، فقال :

أمن ساعد رخو هزيل وكاهل ... عجوز نريد الملك ثبت الدعائم[٢٢]

ويضرب الأمثلة على تردى الحالة العامة وإلى أين وصلت من التدهور والانحطاط فقال :

---

(٢٢) ديوان الجواهرى ص ١٩ جـ١ بغداد ١٩٤٩ .

ومروا بأنحـاء العـراق مضاعة وزوروا قـرى موبوءة وبقاعا
تـروا ما يثير الصابرين أقلـه عـراة حفـاة صاغرين جياعا
وإن شباباً يرقب الموت جائعـاً متى اسطاع عن حوض البلاد دفاعا[٢٣]

وقد أدرك الجواهرى أثر الإقطاع فى تأخير الفلاح ، وأثر الإقطاع فى الدولة ، عندما أصبح بمقتضاه شيخ القبيلة صاحب الملك والإقطاعى الكبير وأصبح أبناء القبائل والفلاحون لا يملكون المأوى ، فوصف الحالة التى شملت الفلاحين بعد الأزمة الاقتصادية التى اجتاحت العراق وصفاً رائعاً فريداً ، قال :

جل معى جولة تريك احتقار الشعب والجهل والشقاء جماعا
تجد الكوخ خاليا من حطام الدهر والبيت خاويـا يتـداعى
واستمع لا تجد سوى نبضات القلب دقت خوف الحساب ارتيـاعا
فلقـد أقبلت جباة تسوم الحى عنفـاً ومهنـة واتضـاعا
إن هذا الفلاح لم يبق إلا العرض منـه يجلـه أن يبـاعا[٢٤]

وقد عالج على الشرقى مشكلة الفلاح واهتم بها اهتماماً كبيراً واعتبرها من المشكلات الجديرة بالاهتمام ، فهى ليست مشكلة الفلاح إنما هى مشكلة الشعب جميعه ، والفلاح عنوان رقى الأمة ومظهر من أبرز مظاهر حضارتها وركيزة من ركائز التقدم ، إذ ليست المدنية الحقيقية هى المتركزة فى المدن الكبرى إنما يقاس تقدم الشعب بقراه وأريافه ، فقال :

إن تفتش عن ارتيـاح بـلاد فتفقـد شئونهـا والنـواحى
وإذا ارتاحت البـلاد تبـدت فى قراهـا علائم الارتيـاح

ووصف ما يعانيه الفلاح العراقى من حرمان من خيراته التى يكد فى سبيلها ، ولكنه لا يفوز إلا بما يسد الرمق ، فهو يعيش فى جنة ولكن حياته العذاب والآلام ، وقد وصف قرى الفلاحين بقرى النمل ، وهو وصف جميل فقال :

---

(٢٣) لاحظ قصيدته عقابيل ص ١٤٥ ج١ بغداد ١٩٤٩ -
(٢٤) نفس المصدر ص ١٦٢ ج١ . وقد نشرت فى جريدة الإخاء الوطنى العدد ١٨ / ١ / ١٩٣١ -

ما لهـذا الفلاح فى الأرض روح أهو من معشر بـــلا أرواح ؟
هو فى جنـــة ينـــال عـــذاباً وهو تحت الأشجار أجـــرد ضاح
وقـــرى النمل لهف نفسى أثـــرى مـــن قـــراه إلا مـــن الأتـــراح

ويثير مشكلة من المشكلات التى كان يئن منها الفلاح العراقى طويلا هى فرض الضرائب الثقيلة التى أرهقته حتى اضطر إلى الدين ، فزادت ديونه عبئاً جديداً على أعبائه وأخذ يضمحل شيئاً فشيئاً ويقتل بغير سلاح ، وهل هناك أنفذ من الفقر سلاحاً ، لذافقد غدا قلبه الجريح يتنزى ألماً ويفيض حسرة ولوعة وكيف لا يطفح هذا القلب بالحسرة والحيوانات والبهائم راضية سعيدة ، فقد أكلت وشبعت . أما الفلاح وهو الإنسان ذو المواهب الفذة والقيمة الغالبة ، فقد حرم حتى من ضرورات الحياة ولم يظفر بالعناية اللازمة ، فقال :

يا ضعيفاً أرى الـــولاة عليـــه أعرضت من نصـــائح النصـــاح
لم يفـــده سلاحه فهـــو ليث قتلوه صـــبراً بغير ســـلاح
لو نفـــدنا لقلب ذاك المعنى لوجـــدناه مثخنـــاً بالجـــراح
خص من نهـــره ومن شاطئيـــه بخسيس المـــرعى وبالضحضـــاح
فى مروج من حولهـــا قـــد تناغت كل صـــداحة إلى صـــداح
يا ربوعاً حيوانهـــا يتغنى بسرور وأهلهـــا فى نيـــاح[٢٥]

وقد وصف أثاث كوخ الفلاح عندما فاض نهر الفرات ، فقال :

طافت حنايا الكوخ فوق خصاصه الـ غرقى وعـــام البيت بالأخشاب
ولقـــد نظرت أثاثه الطـــافى فلم أبصر سوى حصر وجرد ثياب[٢٦]

والشعر النجفى فى الفلاح كثير وكله عالج مشكلات الفلاح ومن الشعراء حسين كمال الدين[٢٧] ومحمود الحبوبى[٢٨] ومحمد رضا المظفرى[٢٩] ومحمد جواد السودانى[٣٠] كما

---

(٢٥) جريدة العراق العدد ١٨٩٨ / ٧ / ٢٦ ونشرت فى ديوان على الشرق ص ١٦٣ ولاحظ من السنة نفسها العددين ١٩٦٨ والعدد ١٩٨١ ومن الديوان ص ١٠٢ و١٠٩ .

(٢٦) ديوان على الشرق ٢٠٣ ولاحظ ص ١٢٨ .

(٢٧) النهضة العراقية العدد ٢٧٢ / ٢ / ١٩٢٨ ولاحظ قصيدة هادى الشباع العراق ٣٨٣٧ / ١٣ / ٣٤ .

(٢٨) ديوان الحبوبى ص ٢٨ ج١ النجف ١٩٤٨ .

(٢٩) الأدب الجديد ص ١٣٠ النجف ؟

(٣٠) النهضة العراقية العدد ٣٢٥ / ٢ / ١٩٢٩ ويلاحظ العدد ٢٨١ / ٢ / ١٩٢٨ .

عالجه من العمارة حسين وهج[٣١] ومن كربلاء عباس حلمي[٣٢] ولعل قصيدة أحمد الصافي هي القصيدة التي حوت جميع المعاني التي تطرق لها الشعراء وهي رائعة الفلاح بحق ، فقد افتتح بها ديوانه (الأمواج) وخاطب فيها الفلاح طالباً منه أن يترفق بنفسه ولا يحملها كل هذا التعب لأن جميع سعيه ذاهب إلى غيره ولا يعود عليه إلا بالفقر المدقع والعيش الحقير والبيت المظلم الداكن الذي يطير إذا هبت الرياح عليه ، فقال :

رفقاً بنفسك أيها الفلاح ... تسعى وسعيك ليس فيه فلاح
لك في الصباح على عنائك غدوة ... وعلى الطوى لك في المساء رواح
هذي الجراح براحتيك عميقة ... ونظيرها لك في الفؤاد جراح
في الليل بيتك مثل دهرك مظلم ... ما فيه لا شمع ولا مصباح
فيخر سقفك إن همت عين السما ... ويطير كوخك إن تهب رياح

وبالرغم من هذا العناء والعيش الذليل في الكوخ الحقير فإن الإقطاعيين لم يتركوا له حتى حريته فقد أثقلوه بالديون بعد أن أخذوا حصة الأسد من الإنتاج الذي أذاب لأجله قلبه ودمه وعرقه ، فجاءه الطامعون يستغلون هذا الربح دون رحمة :

هذي ديونك لم يسدد بعضها ... عجزاً فكيف تسدد الأرباح
بغضون وجهك للمشقة أسطر ... وعلى جبينك للشقا ألواح
عرق الحياة يسيل منك لآلئاً ... فيزان منها للغنى وشاح
أتصدُّ جيش الطامعين ولم يكن ... لك في الدفاع سوى الصياح سلاح ؟

ومتى سمع القوى الطامع الصياح والبكاء فهو في شغل شاغل عنه في لذاته وشهواته ، يستبق الكأس المترعة والألحان المغرية في قصر يفيض بالنور المشرق ويتلألأ بالسعادة الهانية ويطفح بجمال الرياش وغالي الأثاث وبديع الثياب والستائر . ومتى استمع مستغل جشع إلى صوت ضعيف معذب أحدق به البؤس وأضناه المرض وأقعده الفقر وإن كان هذا الضعف

---

(٣١) النهضة العراقية ٢٥٤ / ٢ / ١٩٢٨ وقصيدة ابن الفرات العدد ٤٠٣ / ٢ / ٩٢٩
ومن طريف قول حسين الحاج وهج :

تخلدنا من نبات الأرض قوتا ... ولم نشبع بمكسبنا البطونا
جهدنا زارعين بكل آن ... فلسنا في المزارع ناجحينا
بذلنا النفس في جد وجهد ... وعند الحاصلات (مفلسينا)

(٣٢) العراق ١٨٦١ / ٧ / ١٩٢٦.

هو الحق الصريح ، لذلك وجدنا النجفى يثور ثورة عارمة بعد أن استحال الإصلاح فى ظل السلم والمنطق وطلب من الفلاح أن يترك العمل الذى لا يعود نفعه عليه ويعيث بالزرع فساداً لأنه لا ينتفع بحاصله ويهلك الضرع الذى يدر على المالكين الخير ، فقال الشاعر والألم المرير واليأس الحزين فى شعره :

يا غارس التمر المؤمـــل نفعـــه دعـــه فإن ثمـــاره الأتـــــراح
أقلعـــه فالثمـــر اللذيذ محـــرم للغارسين وللقـــوىّ مبـــــاح

وستبقى مشكلة الفلاح الذى لم يطرأ على مستوى حياته الاجتماعية أى تقدم محسوس إن بقيت سلطة كبار الملاك مسيطرة على دفة أمور الدولة فى العراق[٣٣].

(٣٣) أصدرت حكومة الثورة فى العراق قانون الإصلاح الزراعى لتوزيع الأراضى على الفلاحين للقضاء على الإقطاع

٤

مشكلة الفقر

إن مشكلة الفقر من المشاكل المتمركزة فى مدن العراق ، فهى مثل مشكلة الفلاح فى الريف . تعيش أغلبية الشعب العراقى فى فاقة لا مثيل لها فى العالم المتمدن ، فهم محتاجون إلى الطعام الضرورى بله المسكن والملبس . وبيوت الفقراء قذرة ، يعيش الفقراء جماعات متكتلة فى غرف غير صحية مظلمة ، فإذا أمطرت السماء امتلأت الدور بالأوحال والأطيان . وقد لا يغير الفقراء ملابسهم حتى تبلى وأكثرهم يستعمل ما يرد من أوربا من الثياب المستعملة ، ولولا النوم فى الهواء الطلق وحرارة الصيف التى تستمر حوالى ستة أشهر فتقتل كثيراً من الأمراض وتغذى الجسم بالشمس ، لبلغت نسبة الوفيات عدداً هائلا . وغالباً ما يموت المريض دون أن يرى الطبيب ، إما للضعف المادى أو لعدم العناية ، فيترك المريض للقضاء والقدر ، ولا يزال هؤلاء يطبّبون مرضاهم بالتعاويذ والطلاسم والأدعية . ونسبة وفيات الأطفال مرتفعة جداً [١] وأكثر الأطفال يموتون من سوء التغذية ، وأكثر الوالدين مصابون بأمراض معدية ويرزحون تحت وطأة الملاريا والبلهارسيا والأنكلستوما ، وإذا استثنينا المدن الكبيرة فلا تزال بعض أقضية العراق لا تعرف المياه المعقمة ولا الكهرباء ، فهم يشربون الماء بعد تصفيته فى الحباب ويستعينون فى المدن بالإضاءة البدائية اقتصاداً فى نفقات إيصال النور الكهربائى إلى بيوتهم .

وجل الشعراء كانوا من الطبقة المتوسطة أو الفقيرة ، فقد كان شعورهم عميقاً وإحساسهم صادقاً . وكان على رأس الشعراء الذين عالجوا مشكلة الفقر الرصافى ، الذى عاش فى محيط فقير ، فالفقر غول محلته الأولى هى النبع العذب الذى تدفقت فيه أشعاره واصفة عذاب الإنسانية وأنينها . فقد عكس لنا صورة حية صادقة من حياة هؤلاء الفقراء . . وديوان الرصافى فياض بوصف الفقر والفقراء ، تارة فى صورة اليتيم فى أيام العيد الذى لا يملك

---

(١) نشرة الإحصاء الصحى والحياتى ١٩٥٢ أصدرته وزارة الصحة العراقية (بغداد ١٩٥٥) الصفحات ١٥ و١٢٧ و١٢٩ .

ما يملكه أبناء الأغنياء من غالى الثياب ونفيسها ، وهو يرى أترابه يرفلون بالملابس الزاهية الجديدة فيعود إلى أمه حزين القلب كسير الفؤاد هضيم الآمال[٢] .ومرة يصور الفقير الذى يموت جوعاً ومرضاً ، لأنه لا يملك أجر الطبيب[٣] وآونة يصف أرملة تريد الغذاء لولدها[٤] وقد عالج الرصافى هذه المشكلات معالجة دقيقة ونظمها على شكل قصص مبرزاً كل العواطف والأحاسيس ، والقصة أشد أثراً فى النفوس ، ثم يمزج القصة بالدعوة إلى الإصلاح ويرسم سبل الإصلاح شأن الاجتماعى الماهر الخبير . وقد كانت أكثر قصص الرصافى واقعية مستمدة من الحياة . فقد سئل مرة لماذا نظم (اليتيم فى العيد) فقال خرجت لصديق لى بائع تبغ أمام جامع الحيدرخانة ليلة عيد الأضحى وبينما كنت جالساً فى حانوته أشارت إليه امرأة متحجبة بدا فقرها من عباءتها أن ينزل ، فتهامسا وانصرفت فسألت صديقى عن خطبها فقال إنها أرملة تعيل يتيمين وجاءت بصحن لترهنه لقاء أربعة قروش لأنهما جائعان ، فلحقتها مسرعاً وسلمت لها اثنى عشر قرشا وهى جميع ما أملكه فأخذت المبلغ بتردد وخوف ، ثم ناولتنى الصحن قائلة : الله يرضى عنك ، خذ الصحن . فرفضت ذلك وعدت إلى بيتى والدمع ينهمر من عينى راسماً للبشرية المعذبة صورة حقيقية من صور (اليتيم فى العيد) . وسرد قصص الرصافى كثير وسآخذ صورتين من الصور التى رسمها الرصافى . فمن هذه الصور صورة فقير جائع ليس له من يساعده فى مرضه غير أخت يعيلها غير أن المرض حال دون ذلك فاشتد به الجوع والمرض ، وعندما طلب الخبز للأكل قدمت له الماء لعدم وجود كسرة خبز فى البيت :

رام خبزاً والجـوع أذكى الأوارا فى حشاه فعللتـــه اصطبـارا
ثم جاءت بالمـاء تبـدى اعتذاراً وهـل المـاء ومو يطفى أوارا
يطفئ الجـوع ذاكياً فى التهـــاب

إنها صورة رائعة للفقر فى أجسم مظاهره ، عندما يدهم الإنسان الجوع والمرض والعوز ، فما كان من أخته المسكينة إلا الاستعانة بالجيران ، ولكن هل يساعدها الجيران ويحسنون إليها كل يوم ، وإذا أمدوها بالطعام فمن أين الطبيب المداوى . ويصور الرصافى المريض وهو يشرف على الموت بعد أن اتحد المرض والجوع عليه ، وجلست أخته القاصرة عن عمل أى

---

(٢) الديوان ٥٨ .
(٣) ديوان الرصافى ٩٤ .
(٤) ديوان الرصافى ٢٠٤ .

شيء وهى ترى معيلها يزحف الموت نحوه وتصاب ببلية أخرى بعد موته هى بقاؤه بدون كفن أو دفن حتى يحسن أحد الأغنياء إلى الميت بالكفن . فيؤنب الرصافى الأغنياء فيقول :

أيهـا الأغنيـاء كم قد ظلمتم نعم الله حيث ما قـد رحمتم
سهر البائسون جـوعاً ونمتم بهنـاء من بعد ما قـد طعمتم
من طعـام منـوع وشـراب
كم بذلتم أموالكم فى الملاهى وركبتم بها متـون السفاه
وبخلتم منها بحـق الإلـه أيها الموسرون بعض انتباه
أفتـدرون أنكم فى تبـاب[٥]

ويعالج الرصافى مشاكل العراق الاجتماعية متأثراً بالدين وإن صلحت معالجته فى العصر الإسلامى فلا تصلح لعصره ، فالناس غدوا لا يخافون الحساب ولا يرهبون سوء المصير ، فالقليل منهم يبذل فى سبيل الله ومرضاته ، وجلهم منصرف إلى نفسه إذا لم يبق مرّ القرون المثل الفاضلة فيعتمد على إحساس الناس وإحسانهم وإنصافهم للفقراء وشعورهم بآلام الفقير أملا برحمتهم للأرامل[٦] لأن الإحسان إلى الفقراء حلو جميل يقيد النفوس بالحب ويطلق الألسنة بالثناء والحمد ويكون الفوز المبين للرجل المحسن[٧] ولم يكن الرصافى ثائراً فى شعره الاجتماعى كثورته فى شعره السياسى ، ولعل نظرية القضاء والقدر هى التى أثرت فى تفكيره فهو يطالب بالإصلاح ولكنه يطالب الأغنياء بمساعدة الفقراء وهذا شيء غير واقعى لأن الأغنياء إذا لم تكن هناك قوة تجبرهم لا يحسنون ولن يجودوا .

أما الزهاوى فعلى كثرة ما نظم من الشعر وما طبع من الدواوين فلم يعن العناية الكافية بالفقر وكأنى به لا يحس ولا يشعر بآلامه . وله بعض قصائد نظمها قبل الاحتلال الإنكليزى عالج فيها مشكلة أرملة جندى مات زوجها وخلف لها راتباً تقاعدياً لا يفى بحاجتها ، وكانت قد أصيبت بالسل وذهبت وهى مريضة تطلب من المسئولين استعجال دفع الراتب التقاعدى ، بعد أن تخلى عنها الأهل والأصدقاء لفقرها . ويصف فى القصيدة قسوة موظفى الحكومة العثمانية وشتمهم المراجعين لقضاياهم[٨] ولم يعالج الزهاوى مشكلة الفقر كأنها مشكلة

(٥) ديوان الرصافى ١٠٢ .
(٦) ديوان الرصافى ٢٠٦ .
(٧) ديوان الرصافى ٢٢١ .
(٨) ديوان الزهاوى ٢٤٧ .

اجتماعية إنما كأنها مشكلة فردية قد تكون له صلة بها ، وآلمه أن تكون زوجة ضابط فقيرة بعد غنى وذليلة بعد عز ، ويبعد فى قصته هذه عن المشكلة الاجتماعية ويبحث فى أشياء بعيدة عن الموضوع ويضرب الحكم والأمثال فى غير حاجة لها . وفى القصة موضوع من أرق المواضيع الإنسانية وهو موضوع الأمومة وجوع الطفل وقد تطرق لها الزهاوى ولكنه لم ينجح فى إبرازها فى إطار عاطفى رقيق ، فيصور اختلاج العواطف الرقيقة مع أنه وصل إلى كبد الموضوع وتلمسه فأفلت من يده ، وأخيراً تضطر امرأة الضابط إلى الاستجداء وطلب الرحمة من الناس لكى تغذى ولدها الجائع فى البيت ، وهذه نقطة إنسانية أخرى تعالج بأرق العواطف وأسماها وهى نقطة حساسة فى الشعور الإنسانى غير أنها أفلتت منه مرة أخرى . وأجدر نقطة التفت إليها الزهاوى وبحثها بحثاً وافياً هى إلقاء اللوم على كاهل الحكومة التى لم ترع حقوق الجنود . ولو كان الزهاوى يملك الشعور الاجتماعى العام لألقى جميع تبعات الفقر على الحكومة ، ورسم بعض طرق الإصلاح التى يراها كما فعل الرصافى ، وأخيراً ختم القصة واصفاً آلام الاستجداء والاستجداء وحده مشكلة اجتماعية نتيجة للفقر ، قال :

عليها ثياب رثة وملاءة ... كأحشائها فى كل حين تبزل
تكفكف دمعا بالبنان وكلما ... مشت خطوة أو خطوتين تمهل
تمد يميناً للسؤال ضعيفة ... وتخجل منهم حينما هى تسأل
أأرملة الجندى لا تخجلى فمن ... حقوق العلى أن الحكومة تخجل(٩)

ولابد لى أن أشير إلى محاضرات الزميل الكريم الدكتور ناصر الحانى التى ألقاها عن (جميل صدقى الزهاوى عام ١٩٥٤) والتى أفرد جانبا منها فى أثر الفقر والمرض والفلاح فى شعره واعتبره ذا قيمة اجتماعية إذ لم يكن الزهاوى يكترث كثيرًا بالطبقة الفقيرة وينصرف إلى مشكلاتهم كما انصرف إليها الرصافى والبناء وغيرهما ، فقد كان فى سعة من العيش . أما الإشارات العابرة التى تمر فى شعره فليست لها القدرة على جعله من الشعراء الاجتماعيين .

ولعل البناء أكثر احتكاكاً من غيره من الشعراء بالطبقة الفقيرة ، فقد كان بناء ولابد أنه اشتغل كثيراً أجيراً يحمل الطين (طياناً) وذاق صنوف العذاب والإرهاق الذى يقاسيه العمال الصغار فى العراق من جور البنائين ومساعدتهم وتحكم أصحاب المال . وطبقة البنائين دائماً فى العراق من أفقر الطبقات . ويبدأ البناء حياته طياناً وكلما طالت به الأيام

---

(٩) ديوان الزهاوى ص ٨٦ .

وأبدى براعة وذكاء ووجد أستاذاً يرعاه ويقدمه تقدم فى الصنعة حتى يتقنها فيكون بناءً مستقـلا بذاته . وقد ظهرت آثار هذه البيئة فى شعر البناء واضحة المعالم صادقة الصور ولو أتيح للبناء الوقت الكافى لدراسة أساليب اللغة العربية وتمكن من السيطرة عليها لأصبح من خيرة شعراء العراق فهو شاعر بالفطرة ، ذو ملكة متأججة ، وعاطفة دافقة ، ولكن العاطفة والفطرة جانب من جوانب الأداء ، وإذا لم يملك الشاعر لغة سليمة واتساعاً فى مفردات اللغة وعلماً بأساليب الشعراء ، فالأداة تكون ضعيفة وهذا ما حدث للبناء . فقد كان عليه أن يكد ويكدح ليكسب قوته ويعيش ، ولكن العاطفة المتدفقة كانت تسيطر عليه والملكة كانت تدفعه لأن ينظم شعره خلال مراقبة العمال ، فقد رآه الأستاذ الأثرى يوماً واقفاً يدير أمور العمل والعمال وبيده صفيحة من الطابوق الأصفر يدوّن فيها شعره[١٠] وبالرغم من أن شعره لم يكن متين الأسلوب رائع الديباجة إلا أنه رسم لنا خير الصور الواقعية وأصدقها عن حياة الفقير فى العراق ، فقد وصف امرأة فقيرة أنهك جسمها الذل تعيش فى كوخ مهدم وابنها الطاوى الجائع يطلب الطعام وهى تعلله ، ولكن لا تقدر على إطعامه فقد نضب الحليب فى ثدييها لأنها جائعة مثله ، وقد عالج مشكلة الطفل الجائع الرصافى فى الأرملة المرضعة فوفق وعالجها الزهاوى فى قصيدة أرملة الجندى فأخفق وعالجها البناء فخانه التعبير وبقيت صورة بدائية تتدفق منها الحياة ، قال البناء :

رأيت فتـــاة أنهـــك الـــذل جسمها ... يحيط بهـــا كوخ هنـــاك مهـــدم

ووصف الطفل الجائع وكيف تعلله أمه الجائعة :

تعالج طفـــلا يشتكى شدة الطوى ... وتحنو عليـــه والمدامـــع تسجم
وتعطيه ثدياً أذهب الجـــوع دره ... فينظـــرها تبكى عليـــه فيبغم
تعلله واليأس ملء جفونهـــا ... يكلم عنهـــا وهى لا تتكلم[١١]

إنها أم جائعة معها ولدها جائع وهى موزعة الأحاسيس بين نفسها وولدها . ويتطرق البناء إلى مشكلة مؤلمة فى العراق هى مشكلة معاملة الموظفين للفقراء واحتقارهم وكأن الموظفين من عالم غير عالم الشعب وكثير من هؤلاء كانوا من نفس الطبقة .

وقد لاحظنا أن أكثرية الذين عالجوا مشكلة الفقر كانوا يحملون عواطف كريمة ،

---

(١٠) لاحظ مقدمة ديوانه الثانى .

(١١) ديوان البناء الثانى .

يريدون أن يحصل الفقير على حظ وافر من الغذاء والكساء وألا يستغل ولا يستثمر ، غير أن هذه العواطف كانت عواطف ذاتية تمثل حالة مر الشاعر بها فشعر بشعور الآخرين ، فكان من ذلك أن شعر بالرحمة والحنان فجاء بشعره مطالباً الأغنياء بالإحسان إلى الفقراء والرحمة بهم مع أن حق الحياة الكريمة حق طبيعى لكل إنسان فى كل بلد متقدم ، وكان الأولى أن يطالب الشعراء بتغيير نظام الشعب الاجتماعى ليشمل العدل الاجتماعى الجميع ، غير أن الظروف التى نظم فيها الشعراء بها شعرهم كان شعرهم متأثراً بمثل محدودة الفكرة لعدم تبلور الفكرة الاشتراكية وظهور المطالبة بحقوق الشعب وأخذ العالم هذا الاتجاه بعد الحرب العالمية الثانية ، فمن أمثلة العطف على الفقراء قول محمد الهاشمى :

سألقى نظـرة ملأت حنـانا على البؤساء من طرف خشوع
يعيش الأغنيـاء على رخـاء ونحن نعيش فى بؤس وجـوع

والقصيدة وصف لحالة الفقير ومسكنه القذر وأطفاله العراة النائمين على الأرض الجائعين بالليل يقضون ليلهم بالدموع والحسرات[١٢]. وكما أوصى الأزرى الناس بالإحسان إلى الفقراء أو اليتامى لأن الله أوصى بهم فقال :

لو تنطق الأمـوات عن حال الألى ذهبـوا ضحايا ذلـة وخمـول
لبكيت من ألم المصيبـة رحمـة وكفاك مجملهـا على التفصيـل
إنى لأشعر فى اليتيم إذا بكـى خـوف الأسير وذلـة المعلـول
والله أوصى فى اليتيم عبـاده فى محكم القـرآن والتنـزيل[١٣]

وتردى حالة العراق وانتشار الفقر بين أبناء الشعب أثار الشعراء فسرت فى شعرهم روح النقمة والثورة على سوء الوضع الاجتماعى فأخذوا يشنون حملة شعواء على الترف الذى يرفل فيه الأغنياء ، بينما الفقر المدقع يصل بالفقراء إلى الجوع المهلك وأخذوا يقارنون بين حياة المترف والفقير التعس ولم يكن يخلو شعر شاعر من العطف على الفقراء . قال الجواهرى :

ألم تـر أن الشعب جـل حقوقه هى اليـوم للأفـراد ممتلكات

وطالب بالعدل بين الفقراء والأغنياء فقال :

ولـو كان حكم عـادل لتهـدمت على أهلهـا هاتيكم الشرفـات

(١٢) الأدب العصرى ٢٠ و٢١ جـ٢ .
(١٣) الأدب العصرى ص ٦٦ و٦٧ جـ٢ .

فيصف بيوت الأغنياء فيقول :

بيوت على أبوابهـــا البؤس طافـــح وداخلهـــن الأنس والشهوات[١٤]

وفى قصيدة أخرى يفضل الفقير على الغنى ويدعو إلى احترامه وتقديره[١٥] وبحث مشكلات المجتمع العراقى بحاجة إلى دراسة وحدها ، ولكننا نوجز فنقول بأن الشعراء عالجوها بروح مخلصة ومنهم : محمد بهجة الأثرى[١٦] ومحمود الحبوبى[١٧] وإبراهيم البـاجهجى[١٨] وجواد الشبيبى[١٩] وكاظم الدجيلى[٢٠] وعلى الشرقى[٢١] والشبيبى[٢٢] والزهاوى[٢٣] ومحمد صالح بحر العلوم الذى وصف حال الفقير وما يقاسيه ووصف رب القصر وما يرفل فيه من النعيم ، وألقى تبعة ذلك بصراحة على الحكومة والبرلمان الذى لا يجدى الفقراء نفعا ، فعليهم أن يخرجوا الأخشاب المسندة ، فقال :

فالظلم منتشر والعـــدل مندرس والزيـــغ متبـــع والحق مهتضم
حكومة صـــوت من يشكو ظلامتـــه لهـــا يبعـــده عن سمعهـــا الصمم
ومجلس فيـــه أخشاب مسندة بلا حـــراك فأيـــن النفط والضرم[٢٤]

وبعد الحرب العظمى الثانية تبلورت مُثل الرحمة بالفقير والعطف والإحسان إلى الفقراء ، فقد أخذ المفكرون يطالبون بالمساواة وإتاحة العيش الشريف للشعب أجمع ، لأن الشعب هو صاحب الحق وأن الظروف الشاذة التى مرت بالعراق هى التى خلقت طبقة من الأغنياء استغلت الأكثرية بطرق متنوعة ويجب أن يعود الحق إلى أهله وأن ينال هؤلاء قسطاً وافراً من الرفاه والسعادة ، وكان من طليعة هؤلاء المفكرين جماعة عادت من أوربـا

(١٤) الديوان الثانى بغداد ٩٥٠ ص ١٦١ – ١٦٥ العراق العدد ٢٥٨٥ / ١٠ / ٢٩ .
(١٥) العراق العدد ٨١٢ السنة الثامنة ١٩٢٣ .
(١٦) مجموعته الخطية .
(١٧) الفرى العدد المزدوج ٢٩ و٣٠ / ٩ / ٩٤٨ .
(١٨) العراق العدد ١٢٣٦ / ٥ / ٢٤ .
(١٩) ديوان الشيخ جواد المخطوط .
(٢٠) دار السلام الأعداد ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ / ٢ / ١٩١٩ .
(٢١) ديوان الشرقى ص ١٨٨ .
(٢٢) ديوان الشبيبى ص ١٠٩ .
(٢٣) اللباب ص ١٢١ .
(٢٤) العواطف ص ١١٨ .

وأخذوا يقارنون بين حالة الشعب السيئة وحالة أوربا وما حصلت عليه الشعوب من هناء وسعادة ورفاه وقد تبعهم جل الشعراء الشباب والطبقة الواعية المثقفة فى البلد .

وختاما يا قارئى العزيز

هذه جولة سريعة قدمتها لك عن الشعر العربى فى العراق فى تياراته السياسية والاجتماعية ، وقد ذكرت لك أهم هذه التيارات التى هيمنت على الشعر العربى ، وأثرت تأثيرها العميق فى توجيهه . . وهو بحاجة إلى دراسة أكثر تفصيلا واتساعا من كتابى هذا ، فقد كنت مضطرًا إلى العناية بالاتجاهات أكثر من عنايتى بالشعراء أنفسهم وقد سرت والتاريخ فى دراستى هذه لتكون على بينة من أمر وطنك ولتعلم مقدار تأثير التاريخ فى حياتك وشعبك وأثر الأدب فى تاريخك . . وقيمة أحاسيس الشعراء الغالية وإخلاصهم العميق لتربة هذا الوطن .

ومعذرة مما وقعت فيه من أخطاء ولكل عالم كبوة ، فكيف بى وأنا طالب بحث مستجد فخذ بيدى وعاونى على الصواب . . ولك من الله العلى الكبير والتاريخ القاسى فى عدله المنصف فى حكمه ومنى أجزل الثواب .